نهج أرشد فى دراسة الإنسان ..

عندما يعجز الإنسان عن استكناه حقيقة ما ، فمن الرشد ألا يحبس نفسه أمام قُفل عصى على الفتح ، بل ينبغى أن يصرف نشاطه من محاولة إدراك الكنه إلى محاولة التعرف على الخصائص والظواهر الميسورة ، وإلى تتبع ما دقَّ وجَلَّ فى هذا المضمار .

وهو سوف يستفيد استفادة عاجلة من هذه المعارف التى تيسر تحصيلها .

ثم مَن يدرى ؟ لعل طول التتبع للخصائص والظواهر يكون المفتاح لما استعصى من معرفة الحقيقة ذاتها !

إن العلماء لم يسجنوا عقولهم فى محاولة مستميتة لإدراك حقيقة الضوء ، فإما عرفوا وإما انصرفوا .. كلا ! لقد كفوا عن قرع الباب الموصد ، وتركوا البحث عن كنه الضوء إلى بحث أجدى حول خصائصه .

فأقاموا علماً مترامى الآفاق عن الأشعة وسرعتها وانعكاسها وانكسارها .

وساروا أشواطاً بعيدة فى هذا العلم النافع ، ما كانوا ليبلغوها لو أنهم رفضوا الحركة إلا بعد معرفة الكنه .

ومثل ذلك يقال فى الكهربا ، وفى غيرها من شئون المادة وقواها المخبوءة وأسرارها الغامضة !

والحديث عن الإنسان لا يعدو هذا النطاق ، فمن العبث بذل الجهد لتفسير حقيقة الروح ، والعقل ، وسر الحياة الناشطة الدائبة داخل الجسم الإنسانى .

إن الطب تقدّم تقدماً رائعاً عندما شرع يسجل ملاحظاته الذكية على سير الأجهزة البَشرية فى الجسم ، وعندما عالج عن بصيرة شتّى العلل التى طالما آذت الناس ، وملأت أنفسهم آلاماً .

وسيظل الطب يحث خطاه فى هذا المجال ما بقى على طريقته فى استقصاء

الظواهر والإفادة منها . وسيقف محسوراً مبهوراً لو أنه حاول التغلغل فى فهم حقيقة الحياة وسر الروح .

والدين عندما قرر العلاقة بين الإنسان وربه لم يزد على أن يُعرِّف الإنسان باللّه عن طريق صفاته الجليلة وآياته البيِّنة . ثم بيَّن للإنسان ما له وما عليه فى إحصاء قريب الفهم ، ميسور التنفيذ ، مضمون الثمرة .

والدين هو النهج الفذ الذى يحدد للإنسان وظيفته فى الحياة ، ويسمو به عن الدنايا ، ويدربه على الفضيلة ، ويرشحه لرضوان اللّه ، ويخلده فى رحمته .

وقد حاول الإنسان الشرود عن هذا الصراط المستقيم ، تارة بالبحث فى ذات اللّه ، وتارة بالبحث فى أغوار نفسه هو . فغاص فى أوحال الفلسفة ، وكان كالسيارة التى تركت الطريق الممهد ، فغاصت عجلاتها فى الرمال أو انقلبت على جانبها فلم تتم رحلتها ، ولم تحقق بغيتها ...

ولو أن الإنسان التزم معالمه المشروعة ، ووعى هدايات اللّه وحدها ، ولم يجمح مع الخيال ، ولم يطش مع الغرور ، لكان تاريخه على ظهر الأرض أشرف مما كان .

وبديهى أننا لا نستنكر على الإنسان حرية الفكر ، وامتداد البحث ، واستخدام مواهبه الأدبية الرفيعة إلى حد الإجهاد ...

وإنما نستنكر على الإنسان أن يبدد قواه فى بيداء طامسة يلهث فيها من طول التفكير ثم يعود بخفى حنين !

إنه لو كوَّن معارفه الذاتية - أعنى الإلَهية والروحية - بالأسلوب الذى كوَّن به معارفه العلمية لأراح واستراح .

وهو فى ميدان العلم اكتفى بإدراك الخصائص والظواهر ، فما عليه لو اكتفى فى مجال الوحى بالنشاط داخل هذا النطاق ؟

إن ضوءاً من عظمة اللّه يشرق فى أفئدتنا حين نتأمل فى روائع خلقه ، وحين

نرسل أبصارنا إلى جنبات الملكوت الضخم ، فنرى آثار المجد الذى لا يبلى ، والعلم الذى لا يغيب ، والإرادة التى لا تُحدّ ، والقدرة التى لا تُغلَب .

حسبنا هذا ! فما من جدوى قط للبحث عن كنه الذات الإلَهية !

ومع التشبث بشرائع اللّه من صلاة وصيام وإعطاء وإحسان وحماسة للحق وكره للباطل نشعر بارتفاع مستوانا وزكاة نفوسنا وارتقاء أرواحنا .

حسبنا هذا ، فما من جدوى قط للبحث فى كنه الروح الإنسانية .

وعلى الفكر المتوثب المتوهج أن يشبع فهمه فى مجاله القريب المنتج . كما استطاع شقيقه فى علوم الكون والحياة أن يدع البحث فى حقائق الكهرباء والضوء وأن يبرز عبقريته فى خواصهما وآثارهما ، فيجىء بالأعاجيب .

إن علامات المرور ليست تقييداً لحرية السير بقدر ما هى حصانات من أخطار الطريق .

ومَن ظن أننا نحاول تكبيل العقل الإنسانى بهذا التحديد المقترح فهو مخطىء .

* * *

وفى المرحلة التى بلغتها الحضارة العالمية الآن شرع كثير من المفكرين يتساءلون : أين بلغنا ؟ وماذا كسبنا ؟ وما المستقبل ؟

وهى أسئلة بعث عليها ما يعانيه الناس من حَرَج وقلق .

إلا أن هذه الأسئلة أخذت صورة الاستفهام عن الإنسان ذاته ورسالته فى الوجود ...

ولا عجب ! فنحن فى عصر توغل الإلحاد فى أحشائه ، وما نظن الدنيا فيما مضى من أمرها قد استفحل فيها الزيغ استفحاله فى هذا العصر .

فإذا كان المفكرون من أهل الإيمان يعالجون القضية من جذورها ، فلا بد من ذلك حتى ينبت الإيمان فى أرض نظيفة .

وأمامى الآن عالمان ممن يرفضون المنطق المادى ، ويؤمنون بأن الإنسان أكبر من أن يكون حفنة تراب ، أو رغوة طفت على سطح اللجة ثم تلاشت .

الأول « ألكسيس كاريل » فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » ، والآخر « ج . ب . راين » أستاذ علم النفس وما وراءه بجامعة « ديوك » بالولايات المتحدة فى كتابه « العقل ... وسطوته » .

الإنسان محور البحث فى الكتابين ، وإذا كنا سنسمع تساؤلاً حول أصل الإنسان ونشأته وقواه المأنوسة والمجهولة ، فذلك تمهيد لتحديد رسالته وإنارة الطريق لمسلك أرشد ، وسيرة أشرف .

وليس بحثاً فى غيبيات مبهمة ، ولا اعتسافاً للسير فى طريق ما وراء المادة .

ذلك أن أصحاب النزعات المادية من وجوديين وشيوعيين وإباحيين يبنون مذاهبهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخُلُقية - قبل ذلك وبعده - على أن الإنسان نبات أرضى شيطانى لا رب له ولا حساب ينتظره .

فإذا جاء أهل الإيمان يصلون الأرض بالسماء ، والجسم بالروح ، والدنيا بالآخرة ، ويتحدثون عن الإنسان وأصل تكوينه ، ليهدموا تخرصات المقطوعين عن الله فذلك بدء يفرضه المنطق السليم .

يقول الدكتور « راين » : « ما نحن بنو البَشر . أنت وأنا ؟ فقد عُرف الكثير عن الإنسان ، ولكن طبيعته الأساسية التى تحدوه للتصرف بالشكل الذى يتصرف به ما زالت سراً من الأسرار الغامضة .

« فالعلم الطبيعى لا يستطيع أن يفسر ما هى حقيقة العقل وكيف يعمل مع المخ . ولا يستطيع أن يفسر كيف تحدث الصحوة أو الشعور . وأين يقع الفكر بين أنواع الظواهر الطبيعية ؟

« إن النظريات المجردة أو الافتراض وحده معدوم فى هذه النواحى ...

« وهذا الجهل المطبق - عند مَن يعلم الكثير - منقصة . فقد وسَّع العلم

الطبيعى حدوده بنجاح فى اتجاهات كثيرة . اكتشف القطبين وذرى الأرض وأعماقها وكل عناصر المادة . كما أزاح الستار عن تركيب الكواكب البعيدة ، وأطلق الذرّة بقوتها المدمرة من عقالها .

« وها هو ذا يستكشف التركيب الدقيق للڤيروس طبيعة الغامضة للأمراض الفاتكة .

« فكيف غاب عنه هذا السؤال الرئيسى ، وهو : أين مكان الشخصية الآدمية فى نظام الكون ؟

« إن الإنسان قد ترك مشكلته الذاتية فترة طويلة دون أن يركز بحثه فيها . واستعضنا عن العلم بطبيعتنا معتقدات حولها لعل أولها أن الإنسان مكوّن من عنصرين أحدهما مادى ، والآخر لا مادى ، وهو العقل والروح ..

« وأن السلطان للروح ، وما الجسد إلا سكنى لها وأداة !

« وبالطبع لا نتحدث عن الروح إلا فى أيام الأحد أو إن كان هناك جنازة ! [1] .

« وفى باقى أيام الأسبوع استبدلنا بكلمة الروح كلمة العقل لنعنى نفس الشىء .

« أما وجوه التفرقة الدقيقة بين الاثنين فلم تكن تعنينا !

« وكان الرأى السائد أن العقل هو الذى يتحكم فى الإنسان وفى تصرفاته .

« وبالطبع نمت ثقافتنا ومعاهدنا حول عقل الإنسان ، ولم يقتصر الأمر على المدارس النظرية ، بل تعداها إلى كل طرائق حياتنا وعوائدنا وأخلاقنا ومباهجنا وأطماعنا وقيمنا الخُلُقية كلها فقد انبنت على تلك العقيدة وهى أن للإنسان طبيعة مزدوجة ، وأن عقله هو المركز الحقيقى لشخصيته .

« ويستمر هذا المعتقد المتوارث مع الفرد حتى آخر فترة المراهقة . أما بعد ذلك ، فلن يبقى للأسف إلا مع مَن تخلفوا عن التأمل أو إتمام التعليم العالى .

---

(١) يتحدث المؤلف عن بيئته المسيحية مندداً بأن الموروثات الدينية مقطوعة عن الحياة العامة .

« وبين الشباب الذين يلتحقون بالدراسات العليا قد نجد البعض منهم ما زال متمسكاً - فى وفاء - بمعتقداته الأولى خلال سنى دراسته الجامعية .

« ولكن الاتجاه العصرى العام ينحو بعيداً عن فكرة الطبيعة المزدوجة أو الروحية للإنسان .

« فحين يدرس الطالب العلوم التى تتعلق بالإنسان ، وأصله وتطوره ، وحين يعلم الصلة بين السلوك والمخ ، وحين يرى إلى أى مدى تتحكم الغدد فى شخصية الإنسان بالعوامل الكيميائية ، حين ذاك تبدأ معتقداته فى التزحزح ! ويبدأ إيمانه القديم فى الانهيار .

« فسيجد أن الطفل ينضج حين ينمو مخه ، وأن هناك اتصالاً بين وظائف عقلية خاصة وبين مناطق محدودة فى المخ . فإذا أصيبت تلك تعطلت هذه الوظائف .

« وسيبدو أمام ناظريه أن الفكر والمخ يسيران متحاذيين حتى ليصل الباحث الصغير إلى التفكير فى أن المخ هو مركز التحكم فى السلوك .

« وهذه هى المرحلة الثانية فيما يعرفه الإنسان . والمخ بطبيعة الحال قابل للدراسة بالطرق الطبيعية .

« والخلايا العصبية التى يتكون منها هى جزء من عالَم المادة والطاقة ! أما العقل فلا سبيل إليه !

« فمن أى شىء يتكون ؟ وما هو إن لم يكن من طبيعة المادة ؟ يبدو أنه وظيفة للمخ - أى مظهر من مظاهر النشاط المألوف بهذا الجهاز المادى الذى يسمى المخ ، هكذا يسير التصور .

« وعلى هذا نصل إلى أن الإنسان مادة صرف . وأن العقل ما هو إلا تجلى المخ حين ينشط !

« ثم ينهى الطالب دراسة العلوم الطبيعية وقد تبخر الكثير من معتقداته الأولى عن الإنسان ، وطبيعته المزدوجة وأصله السماوى » !

ومعنى كلام الدكتور « راين » أن أسلوب الدرس فى الجامعات والمعاهد ينتهى إلى أن الإنسان كائن مادى محدود . وأنه فى برامجه المقررة يرفض الحديث عن الروح ، أو الإيماء إليها .

إن الإنسان بدأ وكأنه حشرة زاحفة تافهة . وما زال يصعد فى سلم الارتقاء ، وينتقل من طور إلى طور ، حتى بلغ مكانه الحالى !

وأثر هذه الدراسة المبتورة الزائفة تقضى على الإيمان الفطرى ، وتصرف الناس عن بيوت الله ، وتربط نشاطهم بيومهم المحسوس وحده ...

وقد يكون بعضهم جريئاً فيعلن جحوده وانصرافه عن الدين ..

وقد يكسل البعض الآخر ، أو يجبن عن كشف خبيئته ، فيحيا بنفس كفور وصورة مؤمنة !

فهل هذا التفكير علمى حقاً ؟

لقد تبين لك أن الكثرة العظمى من العلماء الراسخين فى دراسات الكون والحياة ينبذون باشمئزاز فكرة ميلاد العالَم عن طريق « صدفة » عمياء ..

وينبذون - باشمئزاز أشد - القول بأن النواميس الرائعة البارعة التى تحكم أجزاءه من الذَرَّة إلى المجرة تمضى فى طريقها هكذا دون سيد يملك الزمام وقَيِّم يتولى الرعاية !!

إن الإيمان بالله ضرورة عقلية لا محيص عن التسليم بها وبما يتبعها من انحناء للدين ، وارتضاء لآدابه وأحكامه ..

ونظرية النشوء والارتقاء - إن صحت فى صورتها العلمية الشائعة - فهى لا تدل بتة على أن الحياة وُجدت من غير موجد ، كلا ! .. إنها تدل على أن الحياة بلغت شأوها الحالى بعد ما صعدت فى سلم التطور ، وانتقلت من دور إلى دور .

وأىُّ منكَر فى هذا التصوير للطريقة التى وُجِدت بها الحياة ؟

إن ابن مسكويه ، وابن خلدون سبقا إلى تقرير ذلك قبل « داروين » ، ولعلهما تمشيا فى هذا الفهم مع الجو الذي يوحى به قوله تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ (١) .

أما الترويج للإلحاد باسم البحث العلمى ونظرياته التى استقرت أو التى لم تستقر ، فهو خداع صغير .

والواقع أنه لا بد من إعادة النظر فى طرائق الدراسة الكونية والإنسانية ، فإن بناءها على التفكير المادى المحض غش علمى يجب أن يُطارد كأخسّ أنواع الغش التجارى !

وقد ألمعنا فيما مضى إلى أن الإلحاد يقوم على إشاعات كاذبة فى ميدان العلم . وأنه لا أساس له ولا وجاهة ..

ونترك الدكتور « راين » وكتابه الملىء بالتجارب التى يثبت بها أن الإنسان كائن مزدوج ، مادى ، وروحى .

ونسمع لصاحب كتاب « الإنسان ذلك المجهول » وهو يتساءل :

« ما الفكر ؟ ذلك الكائن العجيب الذى يعيش فى أعماق ذاتنا من غير أن يستهلك أى قدر قابل للقياس من النشاط الكيميائى ؟

« هل يتصل بأشكال النشاط المعروفة ؟

« هل يمكن أن يكون منظم الكون وأنه مع تجاهل الأطباء له أهم من الضوء ؟

« إن هذا العقل المخبأ بداخل المادة الحية يهمله « الفسيولوچيون » و« الاقتصاديون » إهمالاً تاماً . كما لا يكاد الأطباء يلاحظونه .

« ومع ذلك فإنه أعظم قوة فى هذا العالم ! فهل هو نتاج الخلايا المخية مثلما ينتج البنكرياس « الأنسولين » وتنتج الكبد « الصفراء » ؟

---

(١) السجدة : ٧ - ٩

« ومن أية مواد يفرز ؟ هل يأتى من مواد كانت موجودة سلفاً كما يأتى « الجلوكوز » من « الجليكوچين » أو « الفيبرينوچين » ؟

« وهل يحتوى على نوع من النشاط يختلف عن ذلك الذى يدرسه الأطباء ، ويعبر عن نفسه بقوانين أخرى . وتولده خلايا الغشاء المخى ؟

« أو هل يجب اعتباره كائناً غير مادى ، وُجِد خارج الفراغ والزمن !! خارج أبعاد العالم الكونى . ثم أدخل نفسه فى مخنا بطريقة مجهولة لنا » ؟

ونحن نعرف مع هذا التساؤل أن المؤلف رجل مؤمن بالله إلى حد بعيد .

غير أننا لاحظنا عليه علائم الحيرة وهو يتحدث عن صلة الروح بالجسد . بل إن كلامه احتوى على تناقض بيِّنة !!

... مصدرها - فيما نرى - أنه حاول توضيح المفاهيم ، وتحديد العلائق . أى حاول معرفة الكنه فى ارتباط البدن بالروح . وذلك سبب الاضطراب فيما كتب ، فإن سر الروح محتجب وراء قلاع من الأسرار لا تستسلم . وكذلك سر الحياة فى بدننا .

ومن الخير أن نستقبل حقيقتنا الإنسانية كما هى .

فما اتصل بالعقل صقلناه بما يناسبه من علوم .

وما اتصل بالقلب زكيناه بما يلائمه من تربية دينية .

وما اتصل بالجسد تعهدناه بما يتطلبه من زاد وعافية ..

وربما استهوانا البحث فى أعماق الكيان الإنسانى . فلنبحث ما شئنا بعيداً عن تعرف كنه المادة أو الروح ، فإن البحث فى ذلك الاتجاه عديم الجدوى ، وقد جربنا أن تتبع الخواص والأعراض أجدى فى الدراسة من الغوص وراء إدراك الذات نفسها .

* * *

والنهضة البشرية التى قادها الغرب منذ عصر النهضة نجحت فى دراسة الإنسان من زوايا كثيرة ...

لقد تقدمت علوم النفس والاجتماع والأخلاق والاقتصاد والسياسة تقدماً غير منكور . وسار معها على الدرب تقدم آخر فى علوم الطبيعة والكيمياء وسائر الدراسات الكونية .

وبدا كأن الإنسان يتبوأ مكان السيادة المطلقة فى عالَم دانت له عناصره ، واستكانت قواه ...

والحقيقة أن هذا الازدهار الثقافى يخفى وراءه أسوأ ما فى طبائع البَشر من عيوب .

إن الديانات التى نتبرم بها من بدء الخليقة لم تتغير .

وبين الحين والحين تنفجر براكينها فى بناء الحضارة ، فتشرف به على الفناء .

ولو أمكن أن يعيش سكان الأرض فى دعة ورخاء - المدة المقدورة لهم على ظهر الأرض - ما أغناهم ذلك شيئاً .

فإن الوجود أطول عمراً من أن يكون هذه السنوات التى نحياها فى دنيانا هذه ...

والإنسان أسمى وظيفة من أن يكون عبد نفسه . أو عبد أوهام يختلقها ويكرس وقته للدوران حولها .

والقضية التى يجب أن نبت فيها بالرأى الصائب ، هى علاقتنا باللّه ، وكيف تستقر ، وعودتنا إليه ، وكيف نستعد لها .

ولأعترف بأن علوم الدين فى الأعصر الأخيرة لم تحسن بسط هذه القضية ولا إنارة الأفئدة بوضحها ...

وقد انكمشت أو انهزمت أمام التيارات المناوئة لأسباب ينبغى أن ندرسها ، حتى لا يكون المبطلون أقدر على اقتياد الحضارة من المصيبين وحتى لا يُحرم العالَم خيراً هو أفقر ما يكون إليه ...

ونحن لا نرتاب فى أن المستقبل للإسلام ، يوم يُعْرَض الإسلام على الناس نقياً كما جاء من عند اللّه ، ويوم يرى الناس أمة تحيا به ظاهراً وباطناً ، وتقدم من سلوكها الأسوة الحسنة والتطبيق الصحيح .

* * *

نعم : روح وجسد .. ودنيا وآخرة

بين الإنسان وأجناس المخلوقات الأخرى وجوه من الشبه والاختلاف عرفها العلماء وبنوا عليها أحكاماً شتّى .

فالإنسان جسم حى وعقل واعٍ ، وهو فى جسمه يشبه صنوفاً من الحيوان الأعجم ، وفى عقله يشبه الجن والملائكة ، وهما من عالَم الغيب الذى يؤمن به المتدينون وحدهم .

ومع شبهه المقرر بهذه أو تلك ، فهو كائن متميز بخصائصه العليا والدنيا ، وله وظيفة انفرد بها وارتبطت بأوصافه المادية والأدبية جميعاً .

ولا فكاك بين العناصر التى تكوِّن منها الإنسان .

فهو يكلف بجملة مواهبه ، ويؤديها كذلك بكيانه كله .

والعلاقة بين جسمه وروحه وعقله من الامتزاج والتعقيد بحيث يستحيل فصمها إلا بالموت .

وقديماً فكر بعض الناس أن إهمال الجسد وتجاهل مطالبه طريق الارتقاء النفسى .

وفهموا أن التسامى الحق لا يتم إلا برياضات عنيفة يستكين بعدها البدن ويسلس زمامه .

وقد انتقل هذا التصور إلى كثير من المتحدثين فى الدين ، حتى ظن أن التقوى منزلة لا يحرزها إلا أعداء أجسامهم ، وشاع هذا الظن بين المتدينين الأقدمين ، ثم تلاشى تقريباً فى هذا العصر المادى الطافح بالرغبات المجابة والغرائز المدللة .

والأمر يحتاج إلى قدر من التريث فى النظر والحكم .

إن المرء لا يستغنى عن بدن صحيح الأعضاء والمشاعر ، وأى علّة تعتريه فهو نقص قد يكون تافهاً أو سيئاً .

والملحوظ أن الإنسان السوى القوى أشد تجاوباً مع الحياة وأقدر على تذوقها ، وأداء رسالتها ، وإقامة حق الله فيها .

كان عبد الله بن عباس إذا طعم شكر الله أن منحه الشهية القابلة ، والمعدة الهاضمة ، كما يشكره على الغذاء الميسور الذى تناوله !!

وصدق عبد الله ، فإن الخير المسوق إنما يشعر به مَن يفيد منه .

والجسم المتفتح للحياة له إيحاء ملىء بالتفاؤل والإقبال ، ولذلك قال الشاعر :

صـــح جسماً فشاقـــت الأرض عينيه جمالاً وفتنة وضياء

صح نفساً فشاهت الناس حتى كره الأرض حوله والسماء

عجباً للحياة ما سُـــرَّ منهـــا جانب ترتضيه إلا أســـاء

وكم تضطرب أحكام الإنسان على الأمور ، لأن أوجاعاً استبدت به وأرهقت أعصابه !

أترى المعرى لو لم يكن ممعوداً ، ضريراً ، كان يسخط على الدنيا هذا السخط ، ويترك للناس هذا الأدب الحافل بالتشاؤم والانطواء ؟

إننا نرى العافية السابغة نعمة كبرى على الإنسان ، ونعد من مرشحات الكمال البشرى خلو الإنسان من الأمراض المنفرة ، والعاهات المزرية .

بل نعد البدن القدير على أداء الواجبات شرطاً لولاية الوظائف الكثيرة .

ومن ثَمّ فكل عداء للبدن لا يقوم أصلاً على تفكير سليم ، وليس له أساس فى ديانات الله كلها .

إن الله أباح لأنبيائه - وهم صفوة الخلق وأشراف البَشر - أن يلبوا حاجات المعدة ، وأن يقدّموا لها مطالبها من الطعام .

فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُواْ صَالِحاً ، إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

وقال موضحاً طبيعة هذه الإباحة ، وقاطعاً لاعتراضها : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ ﴾ (٢) .

وكما أقر الدين وظيفة الجهاز الهضمى أقر وظيفة الجهاز التناسلى ، وأباح للبَشر أن ينزلوا على حكمه ولم يستثن المرسلين من ذلك القانون الشامل .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ (٣) .

وليس الزواج علاقة اشتهاء بدنى وحسب ، فهذا تصور هابط .

إن هذا الازدواج أساس ارتباط روحى ، وامتزاج مشاعر وراحة أعصاب ، وآثاره المعنوية أربى من آثاره المادية ...

ولقد قرأت محزوناً نبأ ذلك المتدين التعس الذى مزق خصييه بالموسى ، لأنه وجد نفسه مهزوماً أمام إلحاح الشهوة ، وهو يحسب أن ذلك النداء يجب كبته أبداً ، وأن التزوج بالنساء خسة لا تليق بالأطهار !!

إن قمع الغريزة نزعة لم يعرفها رسل الله الكرام .

والذين عذَّبوا أبدانهم بكبتها لم يتحقق لهم الكمال المنشود ، حتى لو افترضنا أنهم هزموا هذه الغريزة سراً وعلناً ، ولم يأذنوا لها قط أن تلتوى بهم هنا وهناك ، مع أن ذلك فى جملة الناس عسير التحقق ...

والغريب أن بعض الناس - بإيحاء من فكر سقيم - يظن الفحولة عيباً ، كأن البدن الفارع مصيبة !!

---

(١) المؤمنون : ٥١ (٢) الأنبياء : ٨ (٣) الرعد : ٣٨

وهذا جهل كبير ، فالرجل العملاق يستطيع أن يكون قوة رائعة فى ميدان الفضيلة .

وربما كلفته نصرة الحق من العناء والأثقال ما يزيد على رياضات التسامى المزعوم بالروح ألف مرة .

مع أنه هنا يسير فى اتجاه سليم ، أما الذى لا يعطى الجسد حقه فهو يترنح بحمله فى طريق شارد .

إن الدين لا يصادر طبائع الناس وإنما يضع لها الحدود المنظمة . الأكل المعتاد جائز ، أما التشبع الذى يورث البطنة فلا يجوز .

والشرع والعقل سواء فى أن السرف مصدر ضرر للفرد ، ومصدر عدوان على الغير .

استمتاع الرجل بزوجته جائز ، أما تطلعه إلى ما وراء ذلك فهو عدوان مقبوح .

والشرع والعقل سواء فى ضبط الشهوة الجنسية وتسييرها فى مجرى محدد معلوم .

إلا أن صوت الدين هنا أدق وأحكم ، لأنه معصوم من تعلات المنحرفين ، وأمانى المعتدين والمتهورين ، والدين كما بيَّنا لا يخاصم الجسم ، لأنه لا يخاصم الإنسان .

وإنما يقوده إلى خيره فى الدنيا والآخرة .

وإذا حارب البطنة ، فمن الحمق أن نفهم من ذلك أنه يدعو إلى الجوع .

وإذا حارب الزنا ، فمن الحمق أن نفهم من ذلك أنه يدعو إلى الحصر والرهبنة .

إنه يحارب التطرف ليدفع إلى الاعتدال .

وليس الزنا بغيضاً لأنه تنفيس عن غريزة محرّمة ، إنما هو بغيض عند الله والناس ، لأنه تنفيس بطريقة شائنة .

أما الغريزة نفسها فليست رجساً من عمل الشيطان ، فهى هى أصل عقد الزواج الذى أباحه اللّه ، بل أوجبه فى كثير من الأحيان ...

والإسلام - كما هو ظاهر فى كتاب اللّه وسُنّة رسوله - ينظر إلى الإنسان على أنه لا يتجزأ ، فالتشريع له فى الدنيا والجزاء له فى الأخرى ، لا يفصل بين روحه وجسده .

وكما أن الماء بخصائصه المعروفة يتكون من عنصرين اثنين ، ولا يسمى أحدهما وحده ماء ، كذلك الإنسان ، هو إنسان بروحه وجسمه معاً ، يستقبل التكليف بهما ، ويتحمل الجزاء بهما .

وقد قرأت لأحد المستشرقين الطاعنين على الإسلام كلاماً يستنكر به هذا المسلك الواقعي ، ويتهم ديننا بالمادية والحيوانية ، لأنه أجرى الأمور على ذلك النحو .

وهذا المعترض المتخرص ، يدين بالمسيحية ، ولما كانت المسيحية تؤمن هى الأخرى بالجزاء المادى ، فقد تأوّل ما عنده ، ثم تناول القرآن ورسوله بهذه الكلمات .

قال قادحاً فى القرآن ، وطاعناً على رسوله : « ولا يبعد أن يكون قد اقتبس أيضاً بعض معانٍ مما جاء فى كتب النصارى عن سعادة الصالحين فى الآخرة .

« وذلك أنه لما كان يتعذر تمثيل الملاذ الروحانية على وجه تدركه أذهان العامة من الناس ما لم يؤتَ فى وصفها ببعض المحسوسات ، اضطر أصحاب أسفار التوراة والإنجيل أن يضربوا للنعيم السماوى أمثلة من أعيان دنيوية .

« فوصفوا مُقام الصدِّيقين بأنه مدينة فاخرة سنيَّة قد بنيت بالذهب والجواهر ، وقالوا إن لها إثنى عشر باباً ، وأن نهر ماء الحياة يجرى فى شوارعها ، وأن على جانبيه شجرة الحياة تحمل إثنى عشر نوعاً من الثمر ، وأن ورقها فيه قوة الشفاء [1] .

---

(١) سفر الرؤيا : ٢١ - ٢٢

« وكذلك وصف المسيح نعيمهم بأنه ملكوت يأكلون ويشربون فيه على مائدته » [١]

ثم قال هذا المعترض : « غير أنه ليس فى هذه الأوصاف شىء من تلك التخيلات الخليقة بالصبيان التى تراها فى وصف جنة « محمد » من الأول إلى الآخر (!!) .

« وهذا فضلاً عن أنه ليس فيها أقل إشارة قريبة أو بعيدة تؤذن بأن ثَمّ شيئاً من تلك الملاذ الشهوانية المولع بها « محمد » .

« بل إن الأمر بالخلاف ، إذ قد قيل لنا بصريح العبارة إنهم فى الآخرة لا يزوجون ولا يتزوجون ، بل يكونون كملائكة الله فى السماء » [٢] .

ونحن نتجاوز العبارات السفيهة التى تناول بها المؤلف الرسول الكريم .

ونلقى نظرة على النصوص التى نقلها من كتبه ... إن العبارة التى ذكرها « متى » فى إنجيله عن تحول البشر إلى ملائكة لا نفهمها نحن إلا على أنهم يتحولون إلى عباد طيعين ، يُلهمون التسبيح والتحميد ، ولا يعصون الله قليلاً أو كثيراً .

وهذا المؤلف بين أمرين : إما أنه لم يفهم دينه كما يجب ، وإما أنه يحكم عليه بالاشتمال على المتناقضات الظاهرة .

إن النصوص التى نقلها عن كتبه تعترف بالجزاء المادي دون مواربة .

وإذا كان ما يقوله حقاً من أن ذلك كله تمثيل وتخييل فمن حقنا أن نسأل : هل الملائكية المزعومة للبَشر تتحقق فقط بالبُعد عن النساء ، ولا يضيرها التهام ما شاءوا من طعام وشراب ؟

إن المَلك لا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ... فلماذا تصور هذا المؤلف أن البَشر سوف يلقون نعيماً روحياً فقط كالملائكة ، ومع ذلك استبعد عليهم الناحية الجنسية واستبقى الناحية المتصلة بالمعدة والأمعاء والفضلات ؟

---

(١) إنجيل لوقا : ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٠ (٢) متى ١٢ : ٣٠

وتوهم أن الروحانية المنشودة تعنى : أكلاً لا زواج معه تفكير مغشوش مرفوض . فإما أن تكون الملائكية بُعْداً عن العوارض المادية كلها ، وإما أن تكون قبولاً لها كلها .

* * *

الإسلام والنصرانية الحقة ، لا يعاديان الجسم الإنسانى .

وقد كان محمد ﷺ بَشَراً كاملاً عندما أسلم كيانه كله للّه .

وقف يصلى حتى تورمت قدماه ، وقاوم الباطل حتى سال دمه ، وعاش طول عمره فى ومضات متصلة من ذكر اللّه والتفانى فى عبادته .

ومع هذه التقوى الغالبة كان يحب الحلوى ، ويُستعذب له الماء ، ويرتدى الثياب الحسنة .

فإذا عرضت أزمة لم يستح أن يرقع ثوبه ، وأن يطوى بطنه تحت حجر ، كظماً على صيحات المعدة الخاوية .

وكان زوجاً رجلاً ، ورب بيت قادراً ، وأبا أولاد يحسن رعايتهم ، تلك مظاهر الإنسانية النبيلة وعناصرها الكاملة .

فليست الغريزة الجنسية رجساً من عمل الشيطان ، ولا كفالة الأولاد شغلاً بباطل .

بل إن الحياة الفاضلة الراشدة ما بقيت على ظهر الأرض إلا بهذا المنهج الواقعى الطهور .

إن الجسد الإنسانى آلة من أدق وأروع وأعجب ما خلق اللّه فى الأرض والسماء ، وقد صاغنا اللّه البديع هذه الصياغة المتقنة ليكون التأمل فيها مثار إيمان وعبرة .

وهذا الجسد وسيلة جيدة لقطع مراحل الحياة وأداء واجباتها باقتدار .

ولو أن أحدنا يمتلك سيارة لاجتهد فى صيانة آلاتها واختيار وقودها وتنقية

داخلها وخارجها وإبراز ألوانها ، حتى تبقى بطاقتها ، وروائها طيعة لقطع المسافات وبلوغ المآرب .

والإنسان لا يستغنى عن جسده ما ظل فى قيد الحياة ، إنه وسيلته العتيدة لتحقيق رسالته فى المعاش والمعاد ، فلا جرم أن الإسلام يتوفر على حياطته وحمايته من المولد إلى الممات .

له أن يطعم الطيبات ، وأن يزدان بالملابس ، وأن يتحلى إذا تيسر له باللؤلؤ والمرجان ، وعليه أن يبتعد عما يؤذيه من الخبائث ، والمسكرات والمخدرات ، وأن يتجنب السرف المودى به ، وأن يتحرز من الأمراض والأقذار ...

وشرائع الإسلام حافلة بالتفصيل فى هذا المجال .

ليس معنى ذلك عبادة الجسد ! فما يخطر هذا ببال عاقل ! إنما الغرض المحدد أن نضع الأمور فى مواضعها ، وألا نخرج على قوانين الفطرة التى سنّها الله لخيرنا ..

ولقد كان الغرب فى حضارته الحديثة أقرب إلى الفطرة من الشعائر والتعاليم التى تعادى الجسد ، وتفرض عليه الشظف ، والهوان فى الدنيا ، وتستكثر عليه النعيم والتكريم فى الآخرة .

نعم .. كان الرجال المدنيون أصح تفكيراً وأسلم طبيعة من رجال الدين هناك .

وكم تعانى الفطرة من غباء بعض المنتسبين إلى الله ! وكم أدى ذلك إلى فتنة جماهير ، وزيغ عقلاء .

ونحن المسلمين نعرف موقف ديننا من هذه القضية ، ولم تشع نزعات الرهبنة إلا فى سيرة بعض المتصوفين الجهال ...

ولا ندرى أكان ذلك تقليداً للنصرانية وابتداعها ؟ أم هو سوء فهم الآثار المروية عن حياة الرسول وصحبه الأبرار ؟

أيّاً ما كان الأمر ، فإن سذاجة فريق من الأتقياء ، وتأثُّرهم بأهواء المبتدعين

والمنحرفين يوجبان علينا أن نزيد الفكر الإسلامى وضوحاً حتى نحط عن أمتنا بعض أوزار التخلف الذى تعانيه فى هذا العصر ..

لقد كنت ألمح بأسي أن اللاعبين الأجانب فى ميادين الرياضة البدنية أقوى من لاعبينا ، وأن قدرة شبابهم على الجرى والوثب أظهر ، وأن شيوخهم أصلب عوداً ، وأطفالهم أنضر وجوهاً ، حتى الحيوانات والطيور هناك أملأ من مثيلاتها لدينا !

لِمَ هذا الضعف ؟ إنه للأسف بقية ذهول عن القِيَم المادية وآثارها البعيدة فى الحياة .

ولكى ندرك بعض الحقائق عن النهضة الغربية الحديثة وتفوقها المادى نذكر ما يقوله « ألكسيس كاريل » عن عظمة الجنس الأبيض ، الحاكم بأمره فى هذا العصر !! يقول :

« إن مقاومة المرض ، والعمل ، والقلق ، والقدرة على بذل الجهد والتوازن العصبى هى العلامات الدالة على سيادة الإنسان . ومثل هذه الصفات هى التى ميّزت مؤسسى حضارتنا فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا .. وتدين الأجناس البيضاء بنجاحها لكمال جهازها العصبى ... إذ على الرغم من أن جهازها العصبى رقيق للغاية وسريع الاهتياج ، فإن فى الإمكان السيطرة عليه ، وترجع سيادة الأجناس البيضاء إلى الصفات الاستثنائية لأنسجتها وإحساساتها » .

ثم يقول هذا الطبيب الحاذق :

« إن لضعف الجسم أسباباً كثيرة ... فمن المعروف جيداً أن أهلية الأنسجة تنخفض بتناول طعام شديد الدسم أو فقير فى العناصر المغذية ، كذلك بالإدمان على تناول الخمر ، أو الإصابة بالزهرى ، وزواج الأقارب ، وكذلك الفراغ والجدة .

« ولقد ثبت أن الإنسان المتحضر يفسد فى الطقس الاستوائى ، وعلى العكس من ذلك فإنه ينجح فى الجو البارد ، والسر فى ذلك أنه يحتاج فى هذا

الجو إلى طريقة فى الحياة تشتمل على نضال مستمر وعلى بذل الجهد العقلى والعضلى المناسب ، واتباع نظام شخصى ، ومدنى ، وأدبى مستقل .

« فمثل هذه الأحوال تعوِّد الجسم على الجهاد والأحزان . إنها تحميه من المرض وبخاصة الأمراض العصبية . كما إنها تدفع الإنسان دفعاً لا يقاوَم ليتغلب على العالَم الخارجى المحيط به » .

وهذه الوصايا تميط اللثام عن سر الواجبات الموزعة على أجزاء الليل والنهار فى الحياة اليومية للإنسان المسلم ، وسر ربطه الدائم بمثله العليا ، وتعليق قلبه ولبه دائماً برب الأرض والسموات .

* * *

obeikandl.com

الإيمان بالغيب ليس إيماناً بالوهم ولا إيذاناً بالفوضى

الخواص من عقلاء المؤمنين أدق تفكيراً وأصدق أحكاماً من أندادهم الملحدين ، لأن العالِم الملحد قد يحيط علماً ببعض آفاق الوجود ، لكنه يجهل أو يجحد الحقيقة الأولى فيه .

بينما زميله المؤمن لا يقل عنه علماً بهذه الآفاق ، ثم هو يضم إليها معرفة حسنة برب الكون ، ومصدر الوجود !

ونحن فى هذا نقارن بين فئات متساوية الذكاء بعضها مؤمن وبعضها كافر ، ولا نقارن بين عالِم فى الذَرَّة ومدرس حساب فى إحدى القرى .

وكما أن خواص المؤمنين أرجح عقلاً وأصوب حكماً ، فإن معيشة الاستقامة التى يعيشونها تجعلهم أهدى سبيلاً وأقوم قيلاً ، وتجعل قدرتهم على قيادة الحياة أشد ، وبصيرتهم فى علاج مشكلاتها أسدُّ .

وقد رمقتُ الأجيال الأولى من المسلمين السابقين فوجدتهم أنشط عقولاً ، وأسلم وجهة ، وأحكم سياسة من غيرهم ...

ولم يحدث بتة أن كان الإسلام قيداً على انطلاقهم الفكرى ، أو عائقاً دون اقتحام المجاهيل المادية والأدبية .

بل الذى وقع هو العكس ، كان الإسلام محرضاً على البحث الجرىء والفكر العميق .

وكانت آيات القرآن الكريم باعثاً هائلاً على إحياء الموات الذهنى والاجتماعى حيث تليت .

... وعلى سناها انطلق العقل الإسلامى الأول انطلاقته البعيدة المدى ، فجدد ونقّى التراث الأول للإنسانية ، ومهّد وأعان على خلق حركة الإحياء فى الغرب ...

بَيْد أننا نلحظ أنه - من عدة قرون - كبا هذا العقل كبوة خطيرة ، كما نلحظ أن جماهير المسلمين قد أصابتها لوثات وعلل أزرت بقدرتها الفكرية ، وحكمها على الأشياء .

ومن تأملى فى نفسى ، وفى نفوس المؤمنين حولى ، أسجل الحقائق الآتية حتى يُعرف بالضبط مدى قُربنا أو بُعدنا من الإسلام ومنطقه ومنهجه :

تضمن الإسلام - كما تضمن غيره من الديانات السماوية - حديثاً عن عوالم أخرى غير محسوسة ، وهو حديث محدد البدايات والنهايات ، فهناك ملائكة لشئون الحياة والموت ، وهناك جن مكلّفون مثلنا بالإيمان والصلاح ، فيهم الفاسد والطيب .

وعلمنا بهذه الأجناس قاصر ، والمصدر الأول لإثباتها هو الدين ، والنصوص الدالة على وجودها لا يمكن نفيها .

وقد وردت بأوصافها آيات قاطعة ، كما جاءت أحاديث آحاد ببعض أعمالها وأحوالها ، وهذه الأحاديث تفيد الظن العلمى ، وهو ظن يقوى ويضعف حسب درجة ثبوتها وقبولها .

غير أن الخياليين والخرافيين من الناس وسّعوا دائرة الكلام فى هذه العوالم المغيبة ، وأقحموها فى شئون مادية كثيرة ، ونسبوا إليها من التصرفات والآثار ما يبرأ منه الدين ، وما شردت به الحياة العادية .

والمسلم يلتزم ما ورد فحسب ، وهو لن يخالف معلوماً من الدين بالضرورة ، ولكن من حقه تكذيب الأخبار التى يقصها الواهمون ، كما أن من حقه حراسة الحقائق المادية والدينية من شغب المنحرفين .

روى أن مالك بن أنس سئل : أيتزوج الإنسى من الجنية ؟ ورد مالك : يجوز - هكذا حكوا - ثم سئل : أيتزوج الجنى من الإنسية ؟

فقال مالك : لا !

لماذا ؟ مع أن الحالين سواء !

قالوا : خشى مالك أن تزلّ أى امرأة ثم تزعم أنها تزوجت من عالَم الغيب !! فحرس حدود الشرع والخُلُق بهذا النفى القاطع ..

وإذا كان الإمام الكبير قد صان الدين بنفى الشطر الأخير من السؤال فنحن اليوم نصون الدين والعقل بنفى كل ما يشيع بين العوام من ترهات فى هذه المجالات ، فاستحضار الجان - وهو ما يسمى فى عصرنا بتحضير الأرواح - شغلٌ بباطل .

وتصديق السحر والشعوذة وخلط المعارف الطبية بأعمال الشياطين الخفية ، لا صلة له بالدين .

ويتصل بذلك حساب الجُمَّل ، والطوالع .

والغريب أن بعض المفسرين والمؤرخين ينساق مع البُلْه فى هذا التيار ، وسائر المزاعم التى تؤكد صلة ما بين بعض الناس ، وبعض الجن أو الملائكة ، لا حرمة لها قط . فإن السمعيات لا مصدر لها إلا الكتاب والسُّنَّة ، أما أخبار الناس فليست مصدر علم ، بل كثيراً ما تكون محور أساطير .

ولا ضير على مَن يكذِّبها ويقيم فهم الناس لشئون الحياة على الواقع المحسوس وحده .

وقد كان صحابة الرسول ﷺ فى معايشهم وعلاقاتهم نماذج لنضج التفكير وسلامة الحواس ، ودقة الأحكام .

ولم تتلوث الحياة الاجتماعية فى العالَم الإسلامى بهذه الأوهام إلا فى عصور التخلف وغفلة الفقهاء ...

ومما يؤخذ على المسلمين فى الأعصار المتأخرة خلطهم بين عالَم الغيب وعالَم الشهادة .

إن العالَم الأول غامض الصورة مبهم المعالم لا نعرف من حقائقه إلا القليل الذى عرّفنا به الشارع لحكمة قصد إليها .

أما العالَم الذى نعيش فيه فهو واضح الصورة بيِّن المعالم .

لعناصره خصائص ثابتة وللعلاقة بين بعضها والبعض الآخر قوانين محكمة ..

غير أن بعض المتدينين يلبس هذا بذاك فلا تتماسك فى ذهنه صورة دقيقة للحياة وسننها ، بل تتحول المادة وصفاتها وقوانينها إلى سائل رجراج يتساوى فيه الممكن والمستحيل ...

وما نقول فى فقيه يفترض أن الميت غسل نفسه غسل الجنازة ؟ وآخر يقود قافلة مشيعيه كيف يشاء ؟

ولقد انتشر هذا اللغو فى أعصار وأقطار شتّى فوقف تقدمها العلمى ورسب فى الأذهان أن حقائق الأشياء غير ثابتة ، وأن قوانين الكون غير مضبوطة .

والغريب أن عدداً من المؤلفين فى فروع الثقافة الإسلامية أذنوا لهذا الباطل أن يشيع .

ويستحيل أن ترقى أمة يسودها هذا الفكر المكذوب .

اقرأ هذه الأقوال المنسوبة إلى المتصوفين ، وانظر هل يبقى بعد تصديقها مجال لارتقاء كونى ، أو تقدم صناعى وكيميائى ؟

زعم الخوّاص أنه كان يركب حماره ، وكان يضربه ، فرفع الحمار رأسه وقال للخوّاص : اضرب ، فإنك هو ذا تضرب على رأسك !!

وزعم غيره أن حية سقطت على الجيلانى ، وهو يُدرِّس ، ثم قامت بين يديه ، تكلمه بكلام لا يفهمه سواه !!

وأن تمساحاً ابتلع صبياً ، فناداه الدسوقى ، فخرج يمشى من البحر ووضع الطفل بين يدى الشيخ !!

وزعم القشيرى أن بعض شجر الرمان خاطب إبراهيم بن أدهم ، ورجاه أن يأكل من ثمره ، فلم يفعل ابن أدهم ، فكرر شجر الرمان رجاءه ثلاث مرات . ثم توسل شجر الرمان إلى رفيق بن أدهم أن يشفع فى هذا الأمر ؛ فشفع . فتناول إبراهيم رمانتين !!

وأن صوفيا ركز رمحه فى الأرض ، فجاء طير ووقف عليه ، وأخبره عن سرية

كانت تقاتل فى أرض الروم أنها سلمت وغنمت ، وأنها ستعود فى يوم كذا ، فسأله الصوفى : مَن أنت ؟ فأجابه الطير : أنا مذهب الحزن من قلوب المؤمنين !!

« حكى عن أبى جعفر الأعور أنه قال : كنت عند ذى النون المصرى ، فتذكرنا حديث طاعة الأشياء للأولياء ، فقال ذو النون : من الطاعة أن أقول لهذا السرير يدور فى أربع زوايا البيت ، ثم يرجع مكانه ، فيفعل !

قال : فدار السرير فى أربع زوايا البيت ، وعاد إلى مكانه » !!

ويقص القشيرى أيضاً عن ذى النون المصرى أنه أقسم على شجرة ليس فيها رطب أن تنثر رطباً جنياً ، فنثرت !!

ويقص أن حية فى فمها طاقة نرجس كانت تُروِّح بها على ابن آدم وهو نائم !!

وأن أبا تراب النخشبى عطش أصحابه ، فضرب برجله الأرض ، فانفجرت عين من ماء زلال ، فقال أحدهم : أريد فى قدح ، فضرب النخشبى بيده إلى الأرض ثم رفعها ، وفيها قدح من زجاج أبيض كأحسن ما رأى الشاب !!

وأن شاباً صوفياً اتهمه ذو النون المصرى بالسرقة وهما فى سفينة ، فقال له الشاب : ألى تقول ذلك ؟ أقسمتُ عليك يا رب ألا تدع واحداً من الحيتان إلا جاء بجوهرة . قال ذو النون : فإذا وجه الماء كله حيتان فى فم كل منها جوهرة !!

وأن جماعة أنكروا الكرامات فخرج إليهم صوفى يركب أسداً ويقول : أين المنكرون ؟!

ويقول الغزالى : كان أبو الخير التينانى مشهوراً بالكرامات ، وأن إبراهيم الرقى صلى وراءه المغرب ، فوجد أن التينانى لا يحسن قراءة الفاتحة ، فقال الرقى فى نفسه : قد ضاعت سفرتى ، ثم خرج إلى الطهارة فهاجمه سبع ، فعاد إلى التينانى ، وأخبره بما حدث من السبع ، فخرج التينانى وصاح بالأسد : ألم أقل لك : لا تتعرض لضيفانى ؟ فتنحى الأسد ، فتطهر الرقى ، ورجع التينانى ، فقال له : اشتغلتم بتقويم الظاهر ، فخفتم الأسد .. واشتغلنا بتقويم الباطن ، فخافنا الأسد !!

ونقل القشيرى عن أبى عمرو الأنماطى قوله : كنت مع أستاذى فى البادية فأخذنا المطر ، فدخلنا مسجداً نستكن فيه ، وكان بالسقف خلل ، فصعدنا السطح ، ومعنا خشبة نريد إصلاح السقف ، فقصر الخشب عن الجدار ، فقال أستاذى : مده ، فمددتها فركبت الحائط من ههنا ، وههنا !!

وذكر أيضاً أن صوفياً أمر جبلاً ، فتحرك ، فقال له : اسكن ، لم أردك ، فسكن !!

ونقل عن الواسطى قوله : انكسرت السفينة ، وبقيت أنا وامرأتى على لوح وقد ولدت فى تلك الحالة صبية ، فصاحت بى ، وقالت لى : يقتلنى العطش ، فقلت : هو ذا يرى حالنا ، فرفعت رأسى ، فإذا رجل فى الهواء جالس . وفى يده سلسلة من ذهب . وفيها كوز من ياقوت أحمر ، وقال : هاكما اشربا ، فأخذت الكوز وشربنا منه ، وإذا هو أطيب من المسك ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، فقلت : مَن أنت يرحمك اللّه ؟ فقال عبد لمولاك ، فقلت : بِمَ وصلتَ إلى هذا ؟ فقال : تركتُ هواى لمرضاته ، فأجلسنى فى الهواء !!

ويُنقل عن صوفى بالبصرة أنه كان إذا خطرت على سره مسألة ، سأل شيخه عنها ، فيجيبه عنها من اصطخر ! على بُعْد المسافة !!

وقال أحد تلاميذ الكرخى أنه رأى فى وجه أستاذه إصابة لم تكن فيه من قبل فسأله عنها ، فأخبره الكرخى أنه اشتهى ذات ليلة - وهو بالعراق - الطواف حول البيت ، فطار إلى مكة ، ثم أراد أن يشرب من زمزم ، فزلّت قدمه على بابها ، فأصيب وجهه !!

وكان بشر الحافى يمشى على الماء !!

ومات صوفى فى سفينة ، فجهّزه الناس وهموا بإلقائه فى البحر ، فجف البحر ، واستقرت السفينة على أرضه ، فنزلوا وحفروا له قبراً ، ودفنوه ، فلما فرغوا ، استوى الماء فارتفع المركب !!

وهمّ شاب بسلب ثوب إبراهيم الخوّاص فأشار إبراهيم إلى عينية ، فسقطتا !!

وزعم أن الآجرى قذف بثوبه وبثوب يهودى فى النار ، ثم اقتحم أتون النار ، وأمسك بالثوبين ، وخرج من باب آخر للأتون دون أن يمسه شىء !!

ويظل القشيرى ينعق بهذه الأساطير حتى يسوِّد بها أكثر من ست عشرة صفحة من رسالته ، فى كل صفحة قرابة أربعين سطراً .

* * *

بأى حق يأخذ هذا اللغو الفارغ طابع الدين ؟ وبأى وجه يروِّجه الملتاثون بين صفوف المؤمنين ؟

لقد كان من رحمة اللّه بالأمة الإسلامية أنّ سَلَفها الصالح سلم من هذا الداء ، وأن النبى ﷺ وأصحابه وتابعيهم بإحسان لم يعرفوا هذه الظلمة ، فسعدت بهم الدنيا ورشدت بهم الحياة . وبلّغوا أمانات الوحى بصدق ، وغرسوها فى أرجاء الأرض بقدرة ، فكانت الحضارة الإسلامية بركة على الإنسانية كلها ...

ولو أن تلامذة محمد ﷺ - حماهم اللّه - غرتهم هذه الأوهام عن الكون والكائنات ما فتحوا مصراً ، ولا هدّوا قطراً ، ولا أعقبوا أثراً .

وإنه ليحزننا أن أجيالاً من المسلمين ظنت مادة الكون عجينة يشكلها بعض الناس كيف يشاء ، فليست لها سمات معتادة ولا قوانين مطردة ...

وإنه ليحزننا أن مَن تقرّبوا إلى اللّه ببعض العبادات يتصورون أن قرباتهم تنقض لبنات الكون وتشيع فى نظامه الفوضي .

والأغرب من ذلك أن يظل هذا التصور المعتل قائماً فى خطب بعض الناس ومقالاتهم ، فى الوقت الذى طفر فيه العلم المادى فغاص فى أعماق الذرّة وغاب فى أجواز الفضاء .

وتقلّب فى علو الكون وسفله يتدبر سنن الفطرة وعجائب الخلق ويعود من هنا وهناك بالروائع .

* * *

والإسلام دين يطارد الخرافة من الفكر ، والرذيلة من القلب ، والزيغ عن الخطو ، والشرود عن السيرة .

بل هو إيجابى فى هذه المجالات كلها ، فهو يشكل المشاعر والأفكار الإنسانية تشكيلاً يجتذب العقل إلى الحق والفؤاد إلى الفضيلة ، ويقتاد البَشر من نواصيهم ليثبتهم على الصراط المستقيم ...

والذى يهمنا هنا أن نقول فى عموم وإطلاق : إن كل ما ينيم التفكير أو يخمله يستحيل أن يكون من الإسلام !

وإن ما يُلاحَظ أحياناً على بعض المتدينين من صدأ عقلى وكسل ذهنى هو نضح علل شخصية أو بيئات متأخرة ، ولا علاقة له بالدين .

وارتباط المسلم بطائفة من العبادات السماوية لا يعنى بتاتاً أن فى حياته جوانب مبهمة ، تشيع الغموض فى الجوانب الأخرى ...

فإن اللّه - فى جميع الديانات وعلى اختلاف الزمان - كلّف عباده بأمور قد ترتفع عن مستوى الفهم العام كصور الصلاة ومناسك الحج ...

وهذه العبادات المقررة تساوى فى دنيا الناس كثيراً من المراسم الشعبية والحكومية التى يتواضع الخلائق عليها ويلتزمون بأشكالها ودلالاتها دون تهمة أو حَرَج ...

وكم نرى فى الأحفال العسكرية والمدنية من تقاليد توضع وتصان ، ويقف عند حدودها أصحاب الفكر المادى المؤمنون بالمحسوس وحده ...

ومع احتواء الإسلام - كأى دين سماوى - على تعاليم من هذا القبيل فقد تميز بأمور ذات بال منها أن هذه التعاليم معقولة الحكمة وغير مضادة للفكر السليم .

فالصلاة حركات وسكنات لا دخل للعقل فى وضعها ، بَيْد أن العقل يعى جيداً ما يقرأ فى وقفاتها وما يمجد به اللّه فى ركوعها وسجودها .

وعلى قدر يقظة العقل والقلب فى أثناء الصلاة تكون مكانة المصلى عند اللّه ويكون حظه من المثوبة .

وفى الحديث الشريف : « إن الرجل لينصرف وما كُتِبَ له إلا عُشر صلاته ! تسعها ! ثمنها ! سبعها ! سدسها ! خمسها . ربعها . ثلثها ! نصفها » ! [1] .

إن درجته تزيد أو تنقص على قدر حضور قلبه وألَق فكره وأدب جوارحه ، كما يأخذ التلامذة درجاتهم فى الصف الدراسى على قدر استيعابهم العلوم وإحسانهم الجواب .

وقبل الصلاة الموقوتة نداء مفصّل الكلمات ، محدّد المعانى ، يخاطِب الإنسان فى تؤدة وبصر !

إن العبادات وإن كانت من وضع اللّه ، جلّ شأنه ، ولا صلة لنا بأشكالها وأعدادها ، إلا أنها أولاً وآخراً وعاء لمعان معقولة وغايات مقبولة . وفى هذا ما يكفى للحفاوة بها .

وقد بلغنى أن بعض معاهد التربية النفسية تفرض على بعض المنتسبين إليها « ورداً » معيناً يردده بصوت جهير ليتخلى به عن أفكار باطلة ، أو يثبت به أفكاراً صحيحة !

وكأنها بهذه الصيحات التى يكررها الشخص تريد أن تلصق بفؤاده أو تنتزع منه ، ما تحب أو ما تكره ..

والأعداد التى تُقرَّر فى هذا المجال لا تُقصد لذاتها قدر ما تُقصد لآثارها المرجوة ...

وعندما يستحب لنا الدين مثلاً أن نُسبِّح اللّه ونحمده ونُكبِّره ثلاثة وثلاثين ... فالمراد الأهم إيقاظ القلب لتنزيه اللّه وشكره وإعظامه .

بَيْد أن بعض المتعبدين يتيه عن هذه الغاية ، ويظن أن العدد مقصود لذاته ، وأن له سراً مغيباً مرهوباً ! ويجتهد أن يبلغ العدد ترديداً باللسان ، وإن كان

---

(١) رواه أبو داود ، والنسائى بإسناد حسن ، وابن حبان فى صحيحه . راجع الترغيب والترهيب : ٣٤١/١

القلب غافياً ، ويظن أنه قد أدى العبادة المستحبة وإن كان ذكر الله لم يتسلل إلى باطنه بشعاع مضىء ولا إلى سلوكه بخُلق زكى .

وما أكثر المتدينين الذين يتقنون من الدين هذا الجانب ، ويحرصون عليه ويذهلون عما وراءه أو يفرطون ...

وما جدوى إيمان الشفتين وتزويق الظواهر ؟

وقد يقبل البعض هذا الإيمان ، لأنه أفضل على كل حال من الإلحاد الذى شاع فى عصرنا ولوّث شتّى الآفاق ..

إلا أننا نلفت الأبصار إلى شىء خطير ، هو أن مستقبل الإيمان أمام هذا الإلحاد الزاحف منوط بيقظة البصائر وحدّة المشاعر وطول التضحية ، وشدة البذل .

أى إن الإيمان الخامد ، والذكر القليل لا يغنيان فتيلاً فى ميدان يتطلب الصدق والجدّ ...

وإذا لم يفلح الدين فى شدّ زناد الفكر والشعور إلى أبعد مدى مستطاع ، فحقيق به أن ينهزم ، وحقيق بأتباعه أن يبيدوا ...

إن احترام الشكل أمر حسن قانوناً وعُرْفاً .

لكن التهويل فيه والتعويل عليه أمر عجيب .

وقديماً حاول بعض الناس أن يؤدى الصلاة المكتوبة ، حركات مجردة من قيام وقعود ، وركوع وسجود ، وظن أنه بذلك يُفرغ ذمته ويؤدى واجبه .

ولكن صاحب الرسالة ، صلوات الله عليه ، لم تنطل عليه هذه الحيلة .

فقال لمن أدّى صلاته كنقر الديك : « صلِّ فإنك لم تصل » [1] .

وصح أنه قال فى شأنه : « لو مات على ذلك مات على غير مِلّة محمد » !

---

(١) قطعة من حديث رواه الشيخان ، وأبو داود والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه . راجع الترغيب : ٣٤١/١

والموت على غير ملّة محمد ﷺ لا يكون نتيجة استعجال بدنى فى أداء واجب ما .

فلا البطء دليل إيمان إذا كان القلب غافلاً ، ولا السرعة دليل نفاق إذا كان القلب ذاكراً .

نعم .. لا بد من الاطمئنان فى أداء الأركان ، وتسويتها على نحو يجعل صورتها مهيبة كريمة .

لكن التسوية المطلوبة هى ما يدل على خشوع القلب وأدب الجوارح ، وسكينة المرء بين يدى رب العالمين ..

والمؤسف أن عدداً كبيراً من المتدينين لم يفهموا الدين على ذلكم الأساس المبين .

فظنوا الصورة هدفاً مقصوداً لذاته ، وألفوا أداء العبادات وأفكارهم ذاهلة وعقولهم شاردة وضبطهم للحقائق مضطرب مائع ...

فزاغت فى الحياة وجهتهم ، وغامت سيرتهم ، وملك زمامهم هوىً لم يُقمع ، وجماح لم يُكبح .

حتى إن بعض المفتونين ساءت ظنونهم بالعبادات وآثارها ، لما رأوه من البلادة النفسية والفكرية عند هؤلاء المتعبدين البُله .

وإنه لثقل على صدر الحياة أن يوجد جيل من الناس لا يعى أن الكون محكوم بقوانين عتيدة ، ولا يدرى أن العقل اليقظ هو الوسيلة الفذة لمعرفة الله ، عن طريق تأمل ملكوته وتدبر وحيه وإنفاذ وصاياه ، وإعلاء كلماته ...

إنّ الدين يتضمن جانباً من الإيمان بالغيب ، وهو كذلك يتضمن جوانب من عالم الحس والحركة .. والجانب الأول ينظم الجوانب الأخرى ويساندها ولا يحيف عليها أو يشرد بها .

ومن ثَمَّ قلنا : إن الإيمان بالغيب ليس إيماناً بالوهم ولا إيذاناً بالفوضى .

وأفعال المسلمين التى تنافى ذلك شىء غير الإسلام الذى يقوم على احترام العقل ونبذ التخامين والأحداس ، وعلى إعظام الكون ولفت النظر إلى ما فى بنائه من روعة وجلال ... وعلى إيقاظ الضمير وجعله مهيمناً على الحركات والسكنات ...

إنَّ أبعد الناس عن الإسلام رجل بصرُه فى مواطىء قدميه .

وهمته لا تعدو ملء بطنه وكسوة بدنه ...

وصلته بالدين تنشأ عن وجل مبهم بما يُدرى ، أو اقتناع غامض بما يُقال .

* * *

obeikandl.com

الهجرة إيمان بالمستقبل وثقة فى الغيب

نحن فى عالَم يسوده المنطق المادى ، ويعد المحسوسات وما يتصل بها هى الوجود الذى لا وجود وراءه !

وجمهرة البَشر أخذت تستكين لهذا التفكير ، وتبنى عليه سلوكها فى الحياة ، وفرحها أو حزنها لما يصيبها من نعماء وبأساء !

نعم .. إنها تحت تأثير الدين تؤمن بما وراء المادة ، وتأوى إلى هذا الإيمان فى الساعات العصيبة .

بَيْد أن لغوب الناس على ظهر الأرض ، وكدحهم لتحصيل ما يريدون ، إنما يثور غباره وراء ضرورات العيش ومرفهاته - أما الدار الآخرة وما يمهد لها ، فأمر قلّما يخطر على البال ، وإذا خطر فقلّما يقترن بالشعور الجيّاش ، والفكر المستغرق ، والعزم الحديد !!

وحقيقة الدين تنافى هذا المسلك الخامل ، فإنّ الإيمان بالغيب قسيم للإيمان بالحاضر . ولا يصح تدين ما إلا إذا كان المرء مشدود الأواصر إلى ما عند الله ، مثلما يتعلق بما يرى ويسمع فى هذه الدنيا ..

والغيب الذى أقصده هنا أوسع دائرة من عالَم الملائكة مثلاً ، أو مشاهد الجزاء الأخروى ، أو المرويات التى أنبأنا الوحى بها ولا نستطيع الوصول إليها بمداركنا .

الغيب الذى أقصده هنا ما يتصل بالسلوك الإنسانى المأنوس لنا ، أى ما ننبعث عنه فى كفاحنا القريب لبلوغ ما نحب وإقصاء ما نكره !!

إنّ النصر على الأعداء غيب ، خصوصاً إذا وهَنَتْ الوسيلة ، وقلّ العون ، وفدحت العوائق .

ولكن الإيمان بهذا النصر المأمول ينبع من الإيمان بالله ، جلّ شأنه ومن ثَمَّ فالمجاهد الموقن يمضى فى طريق الكفاح المر ، وهو واثق من النتيجة الأخيرة .

إن غيره يستبعدها ، أو يرتاب فيها .. أما هو فمعتقد أن اختلاف الليل والنهار يقربه منها وإن طال المدى :

فإذا قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، فإن الجماعة المؤمنة لا تهولها وعثاء الطريق ، وضراوة الخصوم ، وكآبة الحاضر ..

إن إيمانها بالمستقبل يعزيها عن متاعب اليوم ، ويشعر بأنها غيمة عارضة توشك أن تقشّع : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ (٢) .

والرزق - مثل النصر - غيب مرتقب . وعندما ينفق المؤمن ما عنده على أمل أن الله باعث خلَفاً له وعوضاً عنه ، فهو يسير على منطق اليقين المحض .

ومن هنا قال رسول الله ﷺ ، لبلال - لما ادخر له صُبَراً من طعام : « أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالاً » (٣) .

ولما يخشى الإقلال وقد وعد الله أن يخلف على مَن أنفق ؟ ووعده منجز لا ريب فيه .

إن هذا الإيمان بما عند الله هو الذى يرجح عند المؤمن جانب العطاء عندما توسوس له نفسه بالإمساك والمنع ، وخصوصاً مع التأميل فى الحياة ، والرغبة فى سعة الثراء ، والقلق من أحداث الزمان !

ولذلك جاء فى الحديث : « أفضل الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى » (٤) .

---

(١) الروم : ٤٧ (٢) الرعد : ١٧

(٣) رواه البزار ، والطبرانى فى الكبير ، وأبو يعلى ، وإسناده حسن (راجع الترغيب : ٥١/٢) .

(٤) رواه أحمد ، والشيخان ، والنسائى ، وابن ماجه .

والإيمان العميق يجعل المرء كما وصف الرسول الكريم : « أن تكون بما فى يد اللّه أوثق منك بما فى يدك » (١) .

كان المسلمون قبل الهجرة يملكون أنصبة وافرة من الإيمان بالمستقبل ، يعتقدون معها أن دينهم لن يُغلب ... وإن ضعف اليوم حَمَلَته .. ويؤدون فرائض الجهاد والبذل وهم راضون عن ربهم ، راجون ما عنده .

والمجاهدون فى سبيل اللّه بَشَر تجيش فى أنفسهم المشاعر التى تجيش فى نفوس غيرهم ، من تقدير للحياة ، والرأى العام ، وكفالة الأولاد .

وتأمل هذا الحديث الذى يصور الصراع النفسى لدى أنصار الحق ، وكيف يخرجون من غباره أوفياء للّه ، أحقاء بكرامته .

عن سبرة بن الفاكه - رضى اللّه عنه - قال : « سمعتُ رسول اللّه ﷺ ، قال : « إن الشيطان قعد لابنِ آدم بطريق الإسلام ، فقال : تسلم وتَذَر دينك ودين آبائك ؟ فعصاه ، فأسلم ، فغُفِرَ له !

وقعد له بطريق الهجرة ، فقال له : تهاجر ، وتَذَر دارك ، وأرضك ، وسماءك ؟ فعصاه فهاجر ..

فقعد له بطريق الجهاد ، فقال : تجاهد وهو جهد النفس والمال ، فتقاتل ، فتُقتل ، فتُنكح المرأة ويُقسَم المال ؟ فعصاه فجاهد » .

فقال رسول اللّه ، ﷺ : « فمَن فعل ذلك فمات ، كان حقاً على اللّه أن يدخله الجنة .

وإن غرق كان حقاً على اللّه أن يدخله الجنة .

---

(١) رواه الترمذى ، وابن ماجه فى الزهد .

وإن وقَصته دابة كان حقاً على اللّه أن يدخله الجنة » [1] .

هذه طبيعة الاستمساك بالحق والتفانى فى نصرته .

والواقع أن إيمان هؤلاء بالغيب مثل إيمان غيرهم بالمحسوس . إن الرجل الذى يقطع تذكرة للسفر من القاهرة إلى الإسكندرية لا يخامره شك فى أن الإسكندرية موجودة وأن القطار ذاهب به إليها !

والمجاهد المسلم يؤمن بأن الموت نداء الحق ينقله يقيناً إلى جنة عرضها السموات والأرض ، إيماننا اليوم بأن السفر من عاصمة إلى عاصمة أو من قارة إلى أخرى يصل بنا إلى ما نريد !

وعندما يرتفع الإيمان بالغيب إلى هذه القمة الراسخة ، فإن أصحابه منتصرون بمبادئهم حتماً وناشروها فى الحياة نشراً لا يدركه طىّ ، ومكتسحون ما يضعه المبطلون أمامهم من عوائق .

والمستقبل الذى تنتصر فيه الرسالة وينتصف فيه أصحابها يتكون من جزءين أحدهما قريب والآخر بعيد .

أما القريب ففى هذه الدنيا وعلى أرض الميدان الذى تدور فيه المعارك ... وأما البعيد فعند اللّه حيث تتكشف خبيئات النفوس ، وينال المحقون والمبطلون جزاءهم العدل . وفى المرحلتين كلتيهما يقول اللّه تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [2] .

... وجاء فى سورة أخرى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [3] .

---

(١) رواه النسائى فى الجهاد ، وأحمد : ٤٨٣/٣ ، طبع الحلبى .

(٢) القمر : ٤٤ - ٤٦ (٣) غافر : ٥١ - ٥٢

والمسلمون الأوائل لم تنقصهم الثقة فى مستقبل الدعوة التى آمنوا بها ، وكل ما عناهم أن ينهضوا بحقوق الدين الذى اعتنقوه ، وأن يثبتوا على صراطه المستقيم مهما تكاثرت المحن وترادفت الفتن .

من أجل ذلك هاجروا لما اقتضاهم الأمر أن يهاجروا ، وخاضوا غمرات الحروب لما كلّفهم الحق أن يبذلوا النفس والمال .

ولو شققتَ عن ضمائر القوم وجدتَ الهجرة عندهم أشبه بانتقال الموظف اليوم إلى بلد اتصل فيه رزقه أو نال فيه ترقية !

غاية ما هنالك من فرق أن هذا مسلك بدت فيه بواعثه المادية التى تواضع الناس على الاحتفال بها ...

أما المهاجرون الأوائل فهم ينتقلون من بلد إلى بلد إقامة لدين مضطهد ويعاملون رب العالمين وحده حين يحلّون وحين يرتحلون ، ويستيقنون من رضوانه تعبوا أم استراحوا .

* * *

إن هجرات الأحياء على ظهر الأرض كثيرة ، بل إن الطيور فى الأجواء والأسماك فى المحيطات تقطع مسافات كبيرة وراء غاياتها المادية المحدودة .

لكن الهجرة التى علت بها أقدار ، وخلد بها أقوام ، تلك التى قامت ودامت ببواعث الإيمان المحض ، والغضب لله ، والارتباط بتعاليمه ، والعيش بها أو الموت دونها .

ومع أن الوحى الأعلى لقن المؤمنين أن رسالتهم ستستقر ، ورايتهم ستعلو ، وأن الكفر سيذوب ، وينخذل حزبه ، إلا أنه علّق أفئدتهم بالمستقبل البعيد ، أعنى الدار الآخرة وما حوت من ثواب وعقاب ، ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ * فَاسْتَمْسِكْ

بالَّذى أُوحِىَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ (١) .

ولهذه الآيات معنى ينبغى أن نقف عنده طويلاً . فإن المؤمن المجاهد قد يترك هذه الحياة دون أن يعرف نتائج الصراع المحتوم بين الهدى والضلال . وهذا جائز ، بل كثير الوقوع . لأن انتصار الحق ربما اقتضى هذا المؤمن نفسه أن يقدم حياته ، فيكون استشهاده مع غيره من المؤمنين الجسر الذى تعبر عليه المبادىء وتشق طريقها إلى مستقبل وطيد .

لكن هل ذهاب عدد قلّ أو كثر من أهل الإيمان يفيد الضالين شيئاً ؟ كلا ، إن الانتقام الإلهى لاحق بهم يقيناً .

ولذلك يؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ (٢) .

والخطة المثلى أن يؤدى الإنسان واجبة المجرد دون استعجال لمصيرٍ مّا فى هذه الدنيا ، وألا يتعلق بالفوز الشخصى له أو الاندحار الشخصى لخصومه .

فمَن يدرى ؟ ربما رشد هؤلاء الخصوم يوماً ، وتحولوا إلى الإيمان الذى جحدوه من قبل !

وفى أعقاب « أُحد » ، ومع مرارة الهزيمة التى أصابت المسلمين ، يبين الله لنبيه هذه الحقيقة فيقول : ﴿ .. وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِندِ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (٣) .

فى إطار هذا اليقين العميق : لبّى المسلمون النداء إلى الهجرة عندما طولبوا بالهجرة ، واستجابوا لله ورسوله غير خائفين ولا جازعين .

---

(١) الزخرف : ٤١ - ٤٤ (٢) الزخرف : ٤١ - ٤٢ (٣) آل عمران : ١٢٦ - ١٢٨

إن الحياة بالنسبة إلى المؤمن خط طويل يمتدّ مع الزمن لا يقطعه الموت ، ولا يعروه الفناء .

والمؤمنون حين يغرسون فى هذه الدنيا ، فهم يرقبون ثمار غرسهم فى المستقبل القريب ، أو المستقبل البعيد ، بين أهليهم هنا أو عند اللّه هناك .

ولن يسأموا تكاليفَ الجهاد ولو كلفتهم أن يُحْرَموا وطنهم الغالى ، وأن يُرْغَموا على ترك معايشهم به ، وذكرياتهم فيه .

* * *

obeikandl.com

التصوف الذى نريده

مع قيام الإسلام على العقل ، وترحابه بالفكر الجيد ، والبحث الأصيل ، وحضه على الارتباط المادى والمعنوى بالكون عملاً ، وتأملاً ، مع ذلك كله فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجيّاشة ، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد والصواب ...

والإسلام المكتمل ليس « نظرية » علمية ، أو اقتصادية ، وليس فكرة مجردة عن الله ، مهما كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التصور والاستدلال .

إنه قلب انفتحت أقفاله ، وانفسحت أرجاؤه ، وأشرق معنى الحب فى جوانبه ، فهو متعلق بربه ، متتبع لآثاره فى كونه ، عاشق للخير مبغض للشر ، يمتد مع كل شىء حسن ، وينكمش مع كل شىء قبيح .

وقد خاطب الله المؤمنين من أصحاب محمد ﷺ فقال : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ (١) .

ومن المتعذر الفصل بين الاستنارة الفكرية والهداية النفسية .

نعم .. يوجد ناس لهم عقول ذكية وسير هابطة ، ولا نشك فى أن هؤلاء مرضى . والأمراض التى أصيبوا بها متفاوتة الشناعة والسوء .

والمعروف أنّ مَن يعرف خصائص النار يتحاشى ملامستها ، غير أننا نلحظ أن بعض الناس قد يعرف شيئاً ما معرفة حسنة ، ثم يجىء تصرفه وكأنه جاهل كل الجهل .

وهذا التناقض ضرب من الجنون الذى يُرَى فى كل مكان ، ولا يُودَع أصحابه مستشفيات المجانين !

---

(١) الحجرات : ٧ - ٨

إن الأمراض التى تعترى الشخصية الإنسانية كثيرة جداً .

وهذا الجنون الجزئى هو ما أشار إليه القرآن الكريم فى تقريعه للأشرار من العلماء : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

نعم .. فالمفروض أن صحة التفكير تستتبع صحة التصرف !

لكن هذه البديهة عندما تنتقل إلى عالَم التطبيق يعترضها من العوائق ما يعترض التيار الكهربائى عندما ينقطع السلك الحامل له ، أو عندما توجد مواد عازلة تمنعه من الانطلاق إلى مداه .

والدين الحق شفاء من هذه العلل جمعاء ، فهو عقل مستقيم وضمير حى . أما الثروة الطائلة من النظريات ، والفقر المدقع فى المشاعر النبيلة والاتجاهات الكريمة فليس تديناً مقبولاً ..

والسؤال الذى نريد الإجابة عليه :

* كيف نحقق هذا التدين ؟

* كيف نربى فى القلوب الإحساس بجلال الله والخشوع لعظمته ؟

* كيف نجعل اليقين ينزل من السطح ليشتبك بالأعماق ؟

* كيف نحول معرفة الله إلى مذاق حلو يطبع النفوس على الرقة ويصفى السرائر من كدرها ؟

* كيف نجعل المرء مشتاقاً إلى ربه ، فهو ببواعث من أشواقه يطيعه ويسارع إلى مرضاته .. وكيف نجعله هيّاباً لذاته ، فهو بدوافع القلق ينفر من معصيته ويفزع من مساخطه ...

---

(١) البقرة : ٤٤

* كيف يشهد المرء ربه فى مجالى السموات والأرض ، ويشهد أسماءه الحسنى فيما يقع من حركة وسكون على امتداد الزمان والمكان ؟

... إنه لا يتم إيمان ، ولا يثمر دين إلا إذا أحسنا الإجابة على هذا التساؤل !

ونحن نعرف أن العلوم الشرعية تعاونت على شرح رسالة الإسلام وتوقيف الناس على حدوده وحقائقه ، فأى العلوم اكترث بهذه الأسئلة وطال نفسه فى الحديث عنها ؟

إننى لست متصوِّفاً ، وما أحب أن أنتسب إلى فِرْقة من فِرَق المسلمين ...

بَيْد أن الإنصاف يدفعنى إلى القول بأن هذا الجانب المهم من الثقافة الإسلامية اللازمة لم يلق العناية المستحقة لدى جمهرة الفقهاء والمتكلمين .

وأن المتصوفة - برغم شطحاتهم وغلطاتهم - هم الذين أفاضوا فى هذا الحديث .

إن فقهاءنا الذين كتبوا المجلدات فى غسل الأطراف ما كان يعيبهم أن يتناولوا هذا الجانب وأن يضبطوه بأدلتهم الفقهية .

وإن المتكلمين الذين عقدوا الفصول الخطيرة فى الشئون الإلهية المغيبة ما كان يعيبهم أن يحبِّبوا الناس فى الله ويرفعوهم إلى حضرته ، بأسلوب علمى محكم .

لقد كان ذلك - والله - أجدى على الإسلام وأهله ، من بحوثهم العميقة فى الذات والصفات ...

إن العناوين لا تهمنى ، وإنما يهمنى الموضوع ، يهمنى أن أرسم الطريق لبناء النفوس على التقوى ، وإيناسها فى هذه الدنيا بذكر الله ، وإلهامها كيف تستعد للقيادة ، ببصيرة مجلوة ، ورغبة عميقة ، وثغر باسم !

* * *

ولنسأل أنفسنا أولاً : ما هى مصادر ثقافتنا الخاصة ؟

تعتمد الثقافة الذاتية ، أو الثقافة التقليدية للمسلمين على كتاب الله تبارك وتعالى ، وسُنَّة رسوله ﷺ .

على هذين الأصلين تقوم علوم الدين ، وإليهما كذلك تستند علوم الحياة وفنونها .

وفى عصرنا الأول استطاعت شُعَب الثقافة المختلفة أن تقيم حضارة متوازنة الجوانب متكاملة الغايات .

وعندما ننظر إلى عالمنا المعاصر نجد أن شجرة العلوم والفنون تتفرع فى أرجائه المختلفة وتظلل أنحاءه البعيدة فى اتساق يستحق التنويه .

هناك العلوم الآلية والرياضية ، وهناك الفلسفة والآداب .

هناك علوم التربية والأخلاق ، وهناك أبحاث القانون وشرائعه الخاصة والعامة .

ولكل ميدان أسلوبه فى صوغ حقائقه وتقرير أدلته .

ومع الإنصاف وبُعد النظر لا يزعم رجل فى هذه الميادين أنه أحق بغيره من الحياة ، وأنه يغنى كل الغناء عندما يزول سواه .

نعم .. للقوانين مثلاً مكانها الوطيد فى المجتمع ، ولكن هل معنى ذلك أن الدنيا تستغنى عن الوعظ والتربية ؟

وفى ميدان القانون قد يشتجر عالمان على صياغة عبارة ، وقد يختلفان فى بقاء أو حذف حرف من حروف الجر ..

وذلك بديهى فى ميدان تُضبط فيه الحقوق وتُحرس الدماء ويُفصل فى الخصومات .

فهل معنى ذلك أن المجالات القائمة على المعنويات المحضة وملاحظة النفس الإنسانية تفقد قيمتها ؟

كلا ! .. إن عالمنا الحاضر تجاور فيه الباحثون عن أسرار الفضاء إلى الباحثين عن المعادن فى أغوار الأرض ، وتجاور فيه قول الشعر إلى تفتيت الذَرَّة ..

والحياة تسع الأدبى والعلمى لتلك الفئات كلها !

﴿ وَلِكُلٍّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ، فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ ﴾ (١) .

والدراسات العلمية عندنا يجب أن تنسّق ذات بينها حتى تستأنف كفاحها النبيل لخدمة الإسلام وإبلاغ رسالته ، ولا معنى لخصومة بين فرع وفرع ، وميدان وميدان .

غير أننا لحظنا آسفين أن الفقهاء والمفتين قديماً اشتبكوا فى منازعات حادة مع المتصوِّفة والعبّاد ، وأن كلا الفريقين تجهم للآخر ولم يستفد مما عنده .

وكانت نهاية القطيعة بين الفريقين أن وجدنا فقهاً لا روح فيه ، وفقهاء لهم سمت الدين وليس لهم قلبه الحانى الطيب .

وأن وجدنا تصوفاً لا دراية له ، ومتعبدين تحفل سيرتهم بالخرافات والبدع ..

وفى العصر الأخير كادت علوم الدين تنقطع علائقها بالكتاب والسُنَّة إلا بقايا من النظر الكليل والتطبيق القليل .

والأمر يتطلب عوداً سريعاً إلى هذه الأصول واستمداداً مباشراً منها ..

* * *

قد تقول : إن هذا التصوير غير دقيق ، وإنك واهم حين تتهم علماء الكلام والفقه بأنهم قصروا فى ميدان التربية وغرس التقوى والأنس باللّه فى نفوس الناس ، وأن هذا الفراغ المتروك هو الذى ملأه المتصوفة ..

وأرى أن الموضوع يحتاج إلى مزيد إيضاح .

إن علماءنا الأوائل كانوا يجمعون بين سعة العلم وصدق الصلة باللّه ، والأجيال التى استمعت إليهم كانت تفيد منهم الأمرين معاً .

نضارة القلب المتجه إلى اللّه .

وإشراق الفقه الذى يضىء الطريق إليه ..

---

(١) البقرة : ١٤٨

فهم علماء ومربون فى وقت واحد ..

وإنى لأرمق بإجلال وحب رجلاً مثل « البخارى » بدأ كتابه الصحيح بحديث : « إنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

وختمه بحديث : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان اللّه وبحمده ، سبحان اللّه العظيم » .

كان وجه اللّه هدفه أول سطر خطه .

وكان وجه اللّه أمله ، وحمده وتنزيهه شغله آخر سطر خطه .

وبين البداية والنهاية أودع الرجل علمه الغزير وحفظه الكثير ..

والبخارى معروف بأنه من علماء السُنّة ، بَيْد أنى أظلم الرجل وأشباهه من الأئمة حين أجعلهم علماء متخصصين فى فرع واحد من علوم الشريعة على النحو الذى اصطلح عليه الأخلاف .

فالبخارى - فى نظري - عالِم بالإسلام كله . من تفسير وحديث وفقه وعقيدة وسيرة .. إلخ .

والميزة التى غلبت عليه وشُهر بها لا تدل إلا على تفوق فقط فى هذه الوجهة من الدراسة أو على عناية بها فرضتها الظروف المحيطة .

ومثل ذلك يقال فى الخلفاء الأربعة ، والأئمة الأربعة ، ونظائرهم .

فعمر حاكم وواعظ ومربٍّ وفقيه وليس رجلاً سياسياً فحسب ...

وأبو حنيفة فقيه وسياسى وداعية إلى اللّه ، وليس رجل دراسة فقهية فقط ..

واستقاء هؤلاء المباشر من الكتاب والسُنّة جعلهم يتركون فى مَن حولهم جملة المعارف والانطباعات التى يتكون منها المجتمع الإسلامى الناضج الوعى الراشد السلوك ..

إن اتصال أرواحهم بالوحى الإلَهى ، واستضاءة ضمائرهم بصاحب الرسالة

جعلهم على اختلاف وظائفهم العلمية والعملية رهباناً بالليل ، فرساناً بالنهار ، جنّاً فى القدرة على الحياة ، ملائكة فى قيادها باسم اللّه .

وهذا الضرب من الناس أسمى من أن يصاغ أو يقاس بالمصطلحات العلمية الحديثة .

* * *

وجهد علوم الدين بعد أن تفرعت أنهاراً شتّى من الينابيع الأولى كجهد علوم الطب التى تستهدف - مع كثرتها - صيانة البدن الإنسانى . إن هذه العلوم المشتقة من الكتاب والسُنّة تلتقى جميعاً عند تكوين الإيمان ومطالبه .

ولا بد أن يكون من بين هذه العلوم ، علم يقوم على رفع الإنسان إلى مقام الإحسان ، علم يعالج العلل العقلية والنفسية التى تحجب المرء عن ربه ، وتلصقه بالتراب ، أو التى تهتم بأشكال العبادات ولا ترتبط بمعناها وحكمتها ..

ما يكون اسم هذا العلم ؟ لا يهمنى ذلك ، لنسمه التصوف ، أو لنتخير له ما نستحبّ من عناوين .. فالأمر سواء .

إنّ شر ما يصيب المتدينين هو تحول الطاعات إلى عادات تُؤدَى فى غيبة العقل وغفلة الشعور .

والمراسم الدينية - والحالة هذه - معطوبة الثمار ، وربما بقيت وبقى إلى جوارها طبعٌ لم يهذّب ، وخُلُقٌ لم يُقوَم ..

ما الذى يوقظ القلب الغافى ويعيد إليه حرارة الحياة ونشاطها ؟

إن تعهد الناشئة والكبار بما يوجه عواطفهم وآمالهم إلى اللّه ، جلّ جلاله ، شىء خطير ، ولا بد من إقامته على أسس فنية محترمة .

وفى عصرنا هذا ، لا بد من الاستعانة بمقررات علم النفس ، والاستعانة بما فى الآداب الإنسانية الصادقة من تجارب وصور .

ولا أحسب أحداً يمارى فى حاجة الناس إلى هذا اللون من المعرفة والتربية .

والنزاع الذى نشب قديماً بين خصوم التصوف وأصدقائه لا يتصل بما نحن فيه ، إنه كان نزاعاً على قيمة بعض التصرفات والأقوال التى يجب أن تخضع للمقررات الإسلامية .

وإنى أعترف بأنى حسنت صلتى باللّه كثيراً على أثر كلمات قرأتها لـ « الغزالى » و« ابن الجوزى » ، و« ابن تيمية » ، و« ابن القيم » ، و« ابن عطاء اللّه السكندرى » ، مع ما بين أولئك جميعاً من تفاوت المشرب واختلاف النظرة ..

وقد نستطيع التعرض لما تفاوتت فيه أحكامهم ، لكن ما أؤكده هنا هو أن المعنى الذى شرحناه آنفاً قدر مشترك لدى الجميع ، وأننا فى هذه الأيام بحاجة إلى تجديده وتجليته ..

إنه معنى يشع من الكتاب والسُنّة أولاً وآخراً ، ويجعل عالَم الإيمان براقاً بالحب ، مزداناً بمعية اللّه فى الغدو والآصال .

* * *

إنّ الناس فى عصرنا هذا فتنتهم الحياة وضروراتها العاجلة ، وتعلقوا بها تعلقاً سدّ عليهم منافذ النظر إلى شىء آخر أسمى وأخلد .

وليس فى هذا ما يُدهش ، فإنّ اللّه أخبرنا فى كتابه أنه هكذا خلق الناس ، وأن امتحانهم لإحراز الكمال أساسه تهذيب هذه الطبيعة وامتلاك زمامها ، لا الاستسلام والانقياد لأهوائها : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (١) .

لكن الذى يروع فى عالَم اليوم أن العقل البَشرى تقدّم تقدماً ساحراً فى الميدان العلمى والصناعى ، تقدماً أثار فى الإنسان الزهو والغرور ..

---

(١) آل عمران : ١٤

وفى الوقت الذى ظفر فيه العقل ، وطوى المراحل الشاسعة ، بقيت الخصائص الإنسانية الأخرى جامدة كما كانت فى بدء الخليقة .

فالحقد القاتل فى قلب ابن آدم نحو أخيه الطيب بقى كما هو مشتعل الأثرة غبىّ الوجهة .

أما الجهل القديم بطريقة مواراة الجثة فقد تحول إلى ذكاء وخبرة ..

واليوم استطاعت الإنسانية أن تسخِّر أعظم ثمرات الارتقاء العلمى لبلوغ أخس نزعاتها .

ألا ليت الإنسان ارتقى قلباً وعقلاً ، وليته رنا بطرفه إلى السماء ، لـمَّا ملكَ قياد الأرض ..

إنه بدلاً من ذلك مضى فى طريقه يعبد الحياة الدنيا وحدها ويجهل أو يجحد ما وراءها ، ويتطاول على خالقه ، ويظن نفسه إلهاً يخطو على التراب ...

يقول « ألكسيس كاريل » : « فلأول مرة فى التاريخ أصبحت الإنسانية ، بمساعدة العلم ، سيدة مصيرها .. ولكن هل سنصبح قادرين على استخدام هذه المعرفة لمصلحتنا الحقيقية ؟ يجب أن يعيد الإنسان صياغة نفسه حتى يستطيع التقدم ثانية .. ولكنه لا يستطيع صياغة نفسه من غير أن يتعذب .. لأنه الرخام والنحّات فى وقت واحد .

« ولكى يكشف عن وجهه الحقيقى يجب عليه أن يحطم مادته بضربات عنيفة من مطرقته . ولكن الإنسان لن يستسلم لمثل هذه المعاملة ، اللّهم إلا إذا دفعته الضرورة لذلك دفعاً .. ذلك لأنه ما دام محاطاً بأسباب الرفاهية والجمال ومعجزات « الميكانيكا » التى أوجدتها « التكنولوچيا » فسيبقى عبد نفسه ، ومن ثَمَّ فإنه لن يدرك كم هى عاجلة وملحة تلك العملية .. إنه يفشل فى إدراك أنه ينحلّ ، بل إنه يتساءل : لماذا يجب عليه أن يجاهد لتعديل وسائل حياته وتفكيره » ؟

وفى هذا المعنى يقول كاتب آخر :

« لا جَرَم أن الحديث عن تقدم الإنسان نحو الفضاء حديث مثير ، ولكننا نعتقد أن تقدم الإنسان ، ولو خطوة واحدة ، نحو أخيه الإنسان ربما كان أعظم تأثيراً وإثارة .

ثم إن هناك بعد كل هذا جانباً مظلماً آخر ، ذلك الجانب الخفى من روح الإنسان ، الذى لم نكد نبدأ فى اكتشاف مجاهله .

وإنه لمما يبعث على الأسى والأسف معاً أن نقدم على غزو الجانب المضىء من القمر بهذا الجانب المظلم من أنفسنا ، فتصل الصواريخ الأولى إلى هناك مشحونة بالخوف ، والتعصب ، والشك .

الحق أنه يجدر بنا أن نطهر نفوسنا وأيدينا ، وأن نسأل اللّه المغفرة ، ونحن نعد العدة لغزو وجه القمر الناصع » ..

* * *

هذه الكلمات البصيرة تنادينا ، نحن المتدينين ، لأداء الرسالة الإلهية التى ورثناها فى كلمات اللّه وحكمة المرسلين ..

والدين الذي تهفو إليه الإنسانية ليس جملة معارف يصدقها العقل بعد أن يستبين صحتها .

إنه إلى جانب ذلك إحساس بالوجود الإلهى يروى ظمأ الروح إلى الرضا والتسامى .

إنه سعادة بالآخرة تساوى السعادة التى يستشعرها البعض عند الحصول على ثروة طائلة أو منصب كبير ..

إنه أنس باللّه فى الصلاة الخاشعة والصيام العفيف ..

ولآبائنا - عليهم الرحمة - جهد فى هذا المضمار حبذا لو استخلصناه ونقيناه ونفعنا به أنفسنا ونفعنا به الآخرين .

وهذا الاستخلاص لا بد منه ، فقد قرأت مع غيرى - ونحن طلاب - كتاب « العقائد النسفية » فى علم التوحيد ، وقرأت مع غيرى كتاب ابن عجيبة الذى شرح حكم ابن عطاء الله فى التصوف ، وقرأت فى المجالين كتباً شتّى .. وشعرت آخر المطاف بأن هناك نفائس مبعثرة وسط قمامات فكرية كثيرة ... فقلت : حبذا لو مزنا الخبيث من الطيب ، فى هذا الخليط الكثيف .

إننا بحاجة إلى علم تدرس فيه طرق تحويل الحقائق الدينية النظرية إلى خُلق لازم ، وعمل دائم ، وأسلوب فى الحياة معروف الهدف ، منسوق الخطوات .

ولن نستغنى عن الإحاطة بخبرات الآخرين ، وكيف قاوموا الشهوات ، وأزاحوا العوائق . وكيف طبقوا ما تعلموا على الواقع . وكيف نجحوا فى الوصول إلى ما يريدون .

إن الجيوش تحولت علومها النظرية إلى مناورات حية حتى تستكمل ثقافتها العسكرية . وإن المدرسين يتدربون على القيام بمهتهم تحت إشراف يعالج القصور ويداوى الأخطاء ، قبل أن يباشروا تعليم تلامذتهم فى شتّى المعاهد .

والمقصود من هذا كله نقل المرء من تفكير خيالى إلى تفكير واقعى ..

ومن الآفات الملحوظة فى ميدان التدين أن تقترن العبادة بالجهل ، أو بنقص المعرفة وضيق الأفق ..

وهذا الفريق من العبّاد القاصرين تنتشر بينه البدع والخرافات ، ويتسم غالباً بالإخلاص الطائش والحماسة الرعناء ..

وربما كان أنقى قلباً وأسلم عقبى ! لكن الأمية لا يصلح بها دين ولا ينجح بها شعب .

علاج هؤلاء مزيد من المعرفة ، وتفتيق الذهن ، وتوسيع منادح النظر .

أما الآفة التى أزرت بالدين وأهله من قديم ، فهى أن يكون المرء على حظ حسن من الدراسات النظرية ، وأن يكون مستوعباً لنصوص وقضايا دينية كثيرة ،

جيد الشرح لها ، والإبانة عنها .. حتى إذا مُحِّص بالتكليف الشاق أو المعاملة الجادَّة تكشف عن إنسان آخر لا فقه له ولا وعى عنده . فهو كما قال المعرى :

سبِّح ، وصلِّ ، وطف بمكة زائـــراً سبعين ، لا سبعاً ، فلستَ بناسك

جهلَ الديانـة مَن إذا عرضت لـــه أهواؤه لم يلـــف بالمتماســـكِ !

وللمرحوم أحمد أمين وصف كاشف لهذه الآفة ، وقيمة أصحابها ، وكيف يخلصون منها . كتبه من ربع قرن ، وكأنما كتبه الآن ... يقول :

« من عجيب الأمر أن كل شىء فى الوجود يعمل وفق طبيعته ، ويوافق بين ظاهره وباطنه ، وتصدر أعماله منسجمة مع خلقته ، ويعبر دائماً عن جبلَّته ، سواء فى ذلك الجماد والنبات والحيوان ، إلا الإنسان ، فإنه هو الذى يستطيع أن يخدع ، وأن يظهر على غير طبيعته ، وأن يقول غير ما يعتقد ، وأن يفعل غير ما يقول .

« .. الحجر والحديد والرصاص كل منها يعبر عن طبيعته ، وهو يعبر عنها دائماً فى صدق .

« .. وأشجار الورد والتفاح والحنظل تعبر عن طبيعتها فى صدق دائماً ، وتنتج ثمارها من جنس طبيعتها دائماً ، ولا تخرج شجرة التفاح حنظلاً يوماً ما .

« والفرس والجمل والبقر تعبر عن طبيعتها فى صدق دائماً ، فإذا أبدت رغبة فى الأكل أو الشبع ، أو نحو ذلك ، فهذا حق لا مرية فيه .

« أما الإنسان ، فلا يعبر عن حقيقته دائماً ، فقد يعبر عن جوعه وهو متخم ، وعن حبه وهو كاره ، وعن إخلاصه وهو يخفى الإجرام ، وعن حبه للشيوعية والاشتراكية وهو رأسمالى جشع .

« فكل شىء هو نفسه إلا الإنسان ، فكثيراً ما يكون غير نفسه ، حتى قال كاتب ظريف : « إن اللغة لم تخترع للتعبير عن النفس ، ولكن لإخفاء ما فى النفس ، والتمويه على الناس حتى لا يدركوا حقيقة ما فى النفس » .

« .. ومما يؤسف أن الإنسان كلما كان أذكى وأمهر وألبق كان أبعد عن أن يعبر عن نفسه . وعن أن يكون هو نفسه ، وكلما كان أقرب إلى الغفلة والسذاجة كان أقرب إلى أن يكون هو نفسه وأن يعبر عما فى نفسه .

« ليست قيمة الإنسان فيما يصل إليه من حقائق وما يهتدى إليه من أفكار سامية ، ولكن فى أن تكون الأفكار السامية هى نفسه ، وهى عمله ، وهى حياته الخارجية كما أنها حياته الداخلية .

« فقد يكون الإنسان فيلسوفاً كبيراً وهو - فى الوقت عينه - نذل خسيس حقير ، كالذى روى لنا عن « بيكون » الفيلسوف الإنجليزى الكبير .

« وقد يحدثك الرجل عن أضرار الخمر والقمار ، فيمتعك بحديثه ويصف لك ذلك أجمل وصف وأدقه وهو - مع ذلك - سكير مقامر ، لأنه فى أفكاره غيره فى أعماله ، وبعبارة أخرى : هو لا يحقق نفسه ولا يعبر عن نفسه .

« فالفكر بلا عمل مناقشات بيزنطية ، أو بحوث جامعية ، أو ألعاب بهلوانية ، إنما قوة الفكرة وأحقيتها بتحويلها إلى عمل ووضعها موضع التجربة .

« وإذا اعتقدها الإنسان ، فمعناه أن يعمل بها ، وإذا دعا إليها ، فمعناه أنه جربها فى نفسه وبنفسه فوجدها صالحة ، وما عدا ذلك فشقشقة ألفاظ ، وملء مجالس ، وإظهار تظرف ، ومباهاة بالقوة العقلية ، أو القدرة الجدلية ، ومقدمة بلا نتيجة !!

« إن عيب المبادىء السامية كـ « حقوق الإنسان » و« عصبة الأمم » و« ميثاق الأطلسى » و« حماية الأقليات » و« حقوق الأمم الصغيرة » و« العدالة الاجتماعية » .... ونحو ذلك ، أنها أفكار لم ترتبط بالعمل ، ولم تعبر عن حقيقة نفس قائليها ، وإن عبرت فلم تعبر عن نفس مَن يملكون تنفيذها ، وستظل عديمة القيمة ما لم ترتبط بالعمل !!

« تسعة وتسعون فى المائة - على الأقل - من تفكير مفكرينا ومصلحينا ضائعة لأنها كالحب الأفلاطونى لا تتحول إلى عمل !!

« كم من الدعوات وجهت إلى إصلاح الآلة الحكومية ، وكم من خطط وضعت لمحاربة الأعداء الثلاثة - الجهل والفقر والمرض - ، وكم من مقترحات اقترحت لمكافحة الأمية ، وكم من مشروعات وضعت لإصلاح قرى الفلاحين ومساكن العمال ، وكم وكم .. ثم لم يظهر لها أى أثر ، ولم نكسب منها إلا أزماناً ضاعت فى التفكير ، وأموالاً فقدت للصرف على الخبراء ، ومجهودات عقلية أنفقت فى رسم الخطط .

« ووقف الأمر حيث ابتدأ . فالفلاح هو الفلاح ، والصانع هو الصانع ، والآلة الحكومية التالفة هى هى .

« كل ذلك لأن السلك الذى يمتد بين الفكرة والعمل مقطوع ، فالتيار لا يتحول إلى نور ، ولا إلى حرارة ، ولا إلى أى شىء مما ينفع الناس .

« فإذا نحن أردنا الإصلاح الحقيقى ، فيجب أن نبحث - أولاً وثانياً وثالثاً - فى السؤال الآتى :

« كيف نحوّل الفكر إلى عمل ؟ وكيف نمنع الفكر من أن يتبخر ؟ وكيف لا نفكر إلا إذا ضمنّا العمل بما نفكر ؟

« إن الفكرة ميتة ما لم يحيها العمل .. خيال ما لم يحققها العمل .. ولا عبرة بصحة الفكرة أو خطئها إذا ظلت فى عالم التفكير المجرد ، بل إن الفكرة إذا احتوت على خطأ أظهره العمل ، خير من الفكرة التى يثبت صحتها المنطق ولا تتحول إلى عمل » .

هذه هى الحقيقة التى نريد تقريرها ، ولا أحسب أحداً يخالف فى ضرورتها ..

ترى أتكون هذه هى الحقيقة التى أكثر فى الحديث عنها المتصوّفون ؟ إن ذلك يحتاج إلى شرح مستفيض .

على أية حال يجب أن تتضافر الجهود لدفع المسلمين إلى هذه السبيل .. سبيل العمل الذى يملأ القلب ، ويزحم الحياة .

* * *